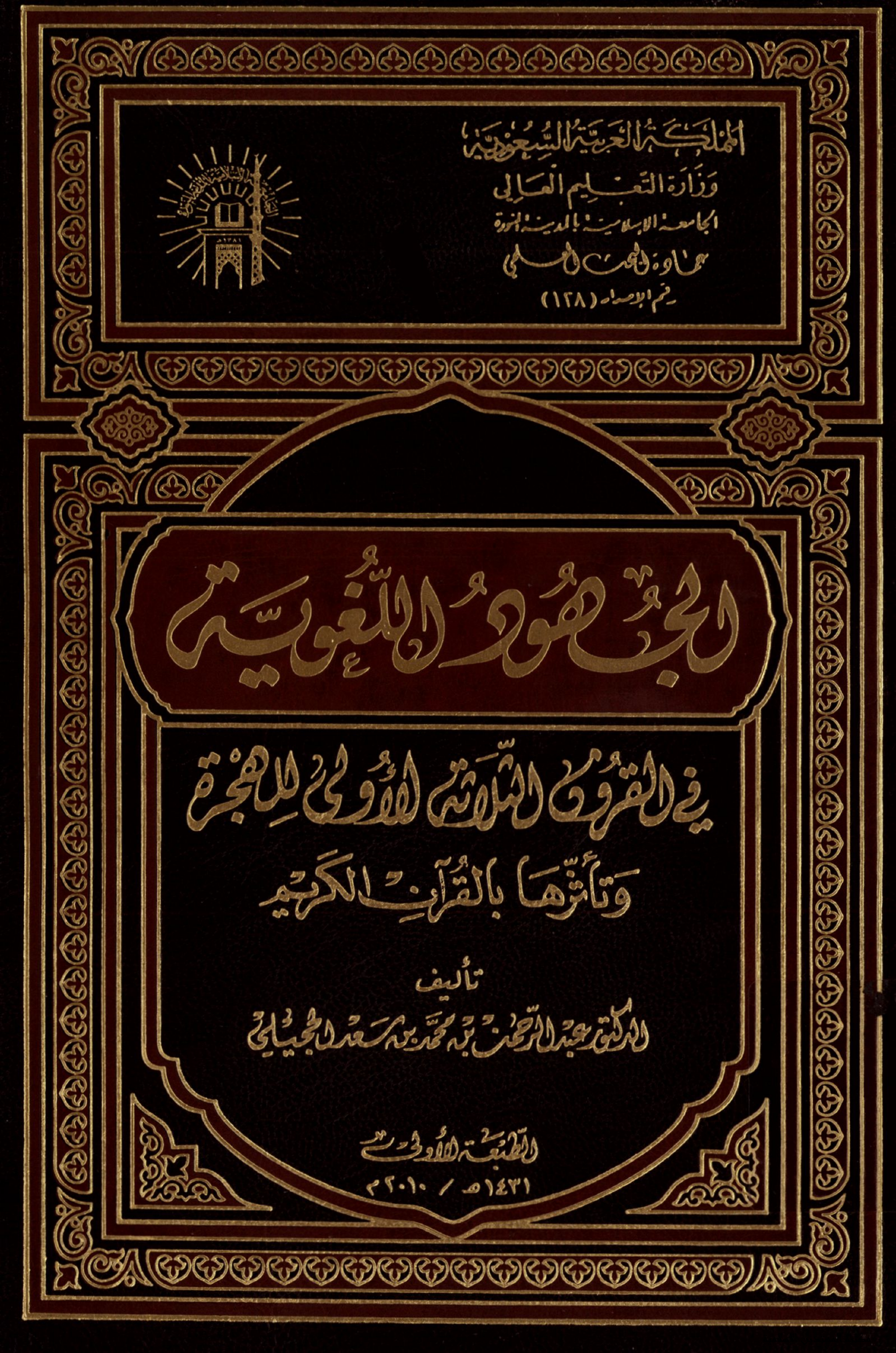

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم الإصدار (١٢٨)
الجهود اللغوية
في القرون الثلاثة الأولى للهجرة
وتأثرها بالقرآن الكريم
تأليف
الدكتور عبد الرحمن بن محمد بن سعد الجحيلي
الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

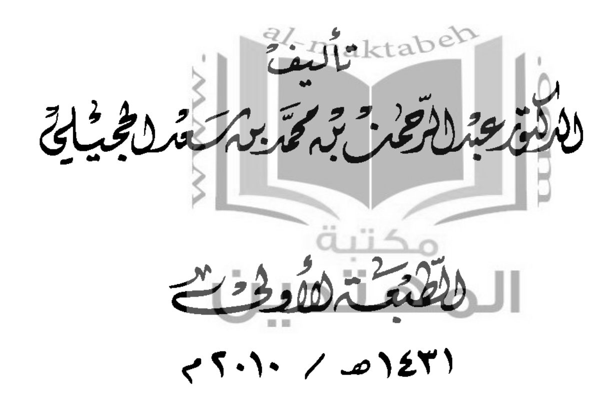
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
عمادة البحث العلمي
رقم : (١٢٨)



الجهود اللغوية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وتأثرها بالقرآن الكريم

تأليف

الدكتور عبد الرحمن بن محمد بن سعد الجبيلي



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

ح الجامعة الإسلاميّة ١٤٣١ هـ

فهرس مكتبة الملك فهد الوطنيّة أثناء النشر

الحجيلي، عبدالرحمن بن محمَّد

الجهود اللغوية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة وتأثّرها بالقرآن الكريم./ عبدالرحمن بن محمَّد الحجيلي. – المدينة المنورة، ١٤٣١هـ

ردمك: ٠ - ٦٣٥ - ٠٢ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١- اللغة العربية – بحوث أ.العنوان

ديوي ٤١٠ ١٤٣١/٤٠٢٢

رقم الإيداع ١٤٣١/٤٠٢٢

ردمك ٠ - ٦٣٥ - ٠٢ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨




بسم الله الرحمن الرحيم


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة معالي مدير الجامعة الإسلاميَّة

الحمد لله الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم، والصَّلاة والسَّلام على رسول الهدى الذي أمر بالعلم قبل العمل، فبه ارتفع وتقدّم، وعلى آله وأصحابه ومَنْ بأثره اقتفى والتزم. وبعد:

فإنَّ الاشتغال بطلب العلم والتفقّه في الدّين من أجلّ المقاصد وأعظم الغايات وأولى المهمّات؛ لذلك ندب إليه الشَّارع الحكيم في كثير من نصوص كتابه، وأمَرَ نبيّه ﷺ بالزيادة منه؛ فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وقال جلّ وعلا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقد رتّب النبي ﷺ الخير كلَّه على التفقّه في الدّين فقال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين**» متّفق عليه. وقال ﷺ: «**النَّاس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**» متّفق عليه. وهذا مما يدلّ على أهميته وعظم شأنه.

لذلك كان الاهتمام بالعلم الشّرعيّ المستمّد من الكتاب والسنّة وفهمِ السَّلف الصَّالح هو الهدف الأسمى لمؤسس هذه الدّولة المباركة الملك عبدالعزيز –يرحمه الله– وكذلك أبناؤه من بعده الذين كانت لهم اليد الطولى وقَدَمُ السبقِ في الاهتمام بالعلم وأهله؛ فأولوه عنايةً فائقةً، وخصّوه بجهود مباركة، ظهرت آثارها على البلاد والعباد.

وكان لخادم الحرمين الشَّريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز –حفظه الله– جهودٌ واضحةٌ استوتْ على سوقها ووفّقتْ لمقصودها، ومن ذلك أمره بزيادة عدد الجامعات، وفتح جميع الوسائل ذات العلاقة بالتطوير والتنقيح والتأليف والنَّشر كعمادات ومراكز البحث العلميّ في شتّى الجامعات وعلى رأسها الجامعة الإسلاميَّة –العالمية– بالمدينة المنورة التي أولت البحث العلميّ اهتماماً بالغاً وجعلته غاية من غاياتها وهدفاً من أهدافها.

ومن هنا فعمادة البحث العلميّ بالجامعة تهتم بالبحوث العلميَّة نشراً وجمعاً وترجمة وتحكيماً في داخل الجامعة وخارجها؛ من أجل النُّهوض بالبحث العلميّ، والتشجيع على التَّأليف والنّشر، ومن ذلك كتاب: [**الجهود اللغوية في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، وتأثّرها بالقرآن الكريم**] تأليف **الدكتور/ عبد الرحمن بن محمد بن سعد الحجيلي**.

أسأل الله أنْ يوفّقنا جميعاً لما يحبّ ويرضى ويرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وصلّى الله وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

مدير الجامعة الإسلاميَّة

أ.د/ محمد بن علي العقلا

المقدمة

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد:

فلقد شاءت إرادة الله، سبحانه وتعالى، أن يكون الإسلام دين المرسلين عليهم السلام، ومحمد ﷺ خاتم رسله، والقرآن مسك كتبه، وأن يترل هذا القرآن المعجز بلغة العرب الذين بعث فيهم نبي الرحمة هادياً ومبشراً ونذيراً. فاكتسبت هذه اللغة الشرف والرفعة والسمو؛ لأنها محتوى ألفاظه، ومستودع أحكامه، وسر إعجازه وبيانه، كما اكتسبت صفة الدوام والبقاء من دوامه وبقائه. ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

ومنذ أن نزل القرآن الكريم، وهو في صدور المؤمنين وقلوبهم، يحيطونه بالرعاية والعناية، ويجدّون في خدمته نصاً ومعنى، حتى هيأ الله له من يجمعه في مصاحف لا تزال تقرأ، وسيظل يتلى، يهدي ويرشد، كما كان على عهد رسول الله ﷺ، إلى أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات، وإلى الأبد!.

وما كان القرآن ليقصر أثره على أن يحول معتقدات الجاهليه إلى عقيدة إلهية سامية، تؤمن بإله واحد، وتتبع شريعة واحدة، وتسير وفق منهاج رباني واضح فحسب، وإنما أحدث إلى جانب ذلك تحولا فكرياً هائلاً في شئون الحياة الجاهلية ومختلف مظاهرها يعدّ نقطة تحول هائلة في تاريخ العرب والبشرية جمعاء.

---

(١) سورة الحجر: ٩

ولم تكن اللغة العربية بمعزل عن هذا الأثر الذي شمل مناحي الحياة، فقد صيرها ينبوعاً صافياً يروي النفوس العطاش، ويملؤها بالآمال، وساق لها الأسباب التي جعلتها أرقى اللغات، فأصبحت مرتاداً لكل طالب، ومنتجعاً لكل قاصد، وأقبل عليها العلماء يغوصون في بحارها، ويقطفون من ثمارها، حتى نشطت حركات علومها العربية في شتى نواحيها.

ولئن كانت العلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وغيرها قد سبقت في التأثر بالقرآن، فقد كانت علوم العربية، نحوها وصرفها وفقهها ودلالتها ومعاجمها، سباقة إلى التأثر بهذا الكتاب العظيم، مواكبة للحركة العلمية بين المسلمين، ولم يكد يبدأ التدوين حتى كثرت المصنفات اللغوية، واستوت على سوقها، وأخذت تمدّ المكتبة العربية بالعديد من الرسائل والكتب على اختلاف أنواعها وأحجامها وصار التصنيف اللغوي فناً له كيانه واستقلاله.

من هنا اتجهت إلى هذه الحركة اللغوية الناشئة في أحضان الإسلام، وفكرت في إيثارها بالدراسة وبيان تأثير القرآن الكريم فيها، والدور الذي قام به لحفز الهمم تجاه اللغة العربية «لغة القرآن».

وقد حببني في هذا البحث النافع توفيق من الله، ورغبة ملحة في نفسي، فشمرت عن ساعد الجد، وألقيت بدلوي فيه، عسى أن أصل فيه إلى نتائج ترضي هذه الدوافع التي شدتني إليه شداً عنيفا.

وهكذا عقدت العزم، واستعنت بالمولى جلت قدرته على متابعة هذا الأثر في دراسة اللغة العربية، مقتصراً في مسيرتي هذه على القرون الثلاثة

الأولى من عمر الإسلام، وما بدا من ملامحه في نشأة العلوم اللغوية وتطورها وما وضح من قسماته على مؤلفاتها -وإن تباينت درجات التأثر، وتفاوتت مراتبها- لأنها تلتقي جميعا عند هدف واحد هو خدمة النص القرآني من جميع وجوهه؛ ليسهل الوقوف على مقاصده بأيسر الطرق.

وما من شك في أن هذا الأثر بقي واضحاً في فروع اللغة مستمرا لا يخبو له نور، حتى جاوز القرن الثالث إلى قرون أخر، قامت بها دراسات لغوية تستمد القوة من الله تعالى والهداية من كتابه العزيز، وكاد التأليف بها يستقل؛ إذ لم يكن ثمة داع إلى التداخل فيه بعامة اللهم إلا إذا جنح المؤلف إلى ذلك.

وقد قسمت موضوع البحث فصولاً ثلاثة، وتحت كل منها عدة مباحث، وسرت في الدراسة والبحث واضعاً نصب عيني وحدة الموضوع، وترابط الأفكار، وما عسى أن يكون هناك من تطور ونمو، دون إغفال للترتيب الزمني في وفاة العلماء أو سواها -حين يدعو الأمر- لتتضح الطرق الموصلة إلى الأهداف والغايات.

وبعد، فلا أدعي الكمال فيما اشتمل عليه هذا البحث؛ لأن الكمال لله وحده، لكني لا أبالغ إذا قلت إنني رجعت من أجله إلى العديد من المصادر والمراجع، وانتفعت بها فيما سجلته به، غير أني ماكتبت شيئا إلا بعد إعمال الفكر، وإنعام النظر، لأصل فيما أكتب إلى ما أبتغي من المستوى الرفيع للكتابة عن لغتنا الحبيبة.

حمداً لله وشكراً، إذ وفقني إلى ما صبوت إليه، وأسبغ عليَّ نعمه فأتم لي ما أردت، كل ذلك بفضل من الله العزيز، ثم بجهد متواصل دؤوب لايعرف الكلل أوالإرجاء من أستاذي المشرف الأستاذ (الدكتور محمد مصطفى رضوان) الذي لم يكتف بساعات الإشراف المحدودة، ففتح لي باب بيته لمواصلة البحث حتى نضجت رسالتي واكتملت بما أفاء عليها من علمه وأدبه وخلقه، فجزاه الله عني خير الجزاء، وغفر له.

وأودّ بذلك أن أكون قد أسهمت مع الباحثين في إقامة صرح النهضة اللغوية المعاصرة، الهادفة إلى خدمة كتاب الله، الداعية لدينه الحنيف إنَّ الدين عند الله الإسلام، (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب).

التمهيد

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: القرآن الكريم وقراءته.

المبحث الثاني: لغة القرآن الكريم.

المبحث الأول: القرآن الكريم وقراءاته

أ- التعريف بالقرآن واشتقاقه:

القرآن: هو كلام الله عز وجل، المنزل على نبيه محمد ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه[١].

هكذا عرفه علماء الشريعة، على اختلاف بينهم في الصياغة، تعريفاً اصطلاحياً يوضح حقيقته ويميزه عما عداه، لكن التعريف الأكمل لا يتم إلا بالإشارة إليه في المصاحف مشاهدا، أو استحضاره في الذهن معهودا.

أما علماء العربية، فيختلفون في اشتقاق لفظ «قرآن» وهل هو مهموز أو لا؟.

١- فذهب اللحياني (ت: ٢٢٠هـ) والزجاج (ت: ٣١٠هـ) وآخرون إلى أنه مصدر مهموز على وزن فعلان «كغفران» لكنهم يختلفون في مورد اشتقاقه:

فيرى اللحياني وتابعوه أنه مشتق من الفعل (قرأ) بمعنى: تلا [٢] ثم

---

(١) إرشاد الفحول: ٢٩

ولا يدخل بعض الباحثين في علوم القرآن النقل بالتواتر والكتابة في المصاحف عند التعريف، لتحقق القرآن بدونهما زمن النبي ﷺ. (مناهل العرفان: ١/١٥)

(٢) يرى بعضهم أن العرب لم تعرف هذا الاستعمال قبل الإسلام، بل كانت تقول: «هذه الناقة لم تقرأ سلىً قط» أي لم تحصل ملقوحا ولم تلد ولدا، ثم أخذته من الآرمية واستعملته بمعنى التلاوة فجاء به القرآن فيما بعد.. انظر: مباحث في علوم =

سمي به المقروء، وهو كلام الله عزوجل المترل على نبيه محمدﷺ تسمية للمفعول بالمصدر[١] ويشهد لمجيء «القرآن» مصدرا بمعنى القراءة، قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾[٢] أي قراءته، وقول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنهما:

ضَحّوا بأشمطَ عنوان السجود به يُقْطّع الليل تسبيحًا وقرآنا[٣]

أي: قراءة.

– ويرى الزجاج أنه مشتق من «القرء» بمعنى: الجمع والضم، ومنه: قرأَ الماء في حوض إذا جمعه وضمه، ثم سمي بالوصف كلام الله عز وجل المترل على نبيه للدلالة على جمع السور والآيات فيه أو القصص والأوامر والنواهي، أو لكونه جامعاً لثمرات الكتب السابقة [٤].

٢– وذهب الشافعي (ت:٢٠٤هـ) والفراء (ت: ٢٠٧هـ) وأبو الحسن الأشعري (ت: ٣٢٤هـ) إلى أنه غير مهموز:

– يقول الفراء: إنه مشتق من القرائن جمع قرينة، وسمي به القرآن؛

=

القرآن (الصالح): ١٩، القرآن (بلاشير): ٢٣.

(١) الإتقان: ٨٧/١.

(٢) سورة القيامة: ١٧، ١٨.

(٣) البيت من البسيط، وهو في ديوانه: ٩٦/١.

(٤) البرهان: ٢٧٨/١.

لأن آياته يشبه بعضها بعضا، فكأن بعضها قرينة على بعض، والقرائن: الأشباه والنظائر، وواضح أن النون هنا أصلية [١].

ويقول الأشعري: إنه مشتق من «قرن الشيء بالشيء» إذا ضمه إليه، وسمي به القرآن؛ لأن السور والآيات والحروف تقرن فيه ويضم بعضها إلى بعض[٢]

- أما الإمام الشافعي فيقول: إن لفظ«القرآن» المعرف بأل، ليس مشتقا ولا مهموزا، وإنما ارتجل ووضع من أول الأمر علما على الكلام المترل على النبيﷺ، فالقرآن عنده« لم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت لكان كل ما قريء قرآنا، ولكنه اسم للقرآن مثل التوراة والإنجيل»[٣]
والذي نختاره منها: القول الأول: وهو أنه مصدر مهموز مرادف للقراءة، ثم نقل من هذا المعنى المصدري، وجعل اسما للكلام المعجز المترل على محمدﷺ من باب إطلاق المصدر على مفعوله.

وبالهمز قرأ السبعة ما عدا ابن كثير[٤]، فقرأ بحذف الهمزة تخفيفا مع نقل حركتها إلى الساكن الصحيح قبلها. و«القرآن» أيا كان مأخذه، اسم من أسماء الكتاب العزيز يطلق –بالاشتراك اللفظي– على الكل وأجزائه..

---

(١) الإتقان: ٨٧/١.

(٢) البرهان: ٢٧٨/١.

(٣) تاريخ بغداد: ٦٢/٢.

(٤) النشر في القراءات العشر: ٤١٤/١.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[١]، وقال أيضا: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[٢].

ويشاركه في الشيوع من الأسماء لفظ «الكتاب»، قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ ﴾[٣] وسمي بذلك؛ لأنه مصدر وهو الكَتْب بمعنى: الجمع والضم، ولا غرو فقد جمع القرآن ثمار العلوم كلها[٤]، وهذان الاسمان قد غلبا عليه من بين أسمائه المتعددة التي تنيف على الخمسين اسما[٥]، ولعل في ذلك إشارة لطيفة وفق إليها الدكتور محمد عبدالله دراز حين قال: «روعي في تسميته قرآنا كونه متلوا بالألسنة، كما روعي في تسميته كتابا كونه مدونا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه.

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلا بعد جيل

---

(١) سورة: الإسراء: ٩.

(٢) سورة: الأعراف: ٢٠٤.

(٣) سورة: الكهف: ١.

(٤) البرهان: ١/٢٧٧.

(٥) ذكرها الزركشي في (البرهان: ١/٢٧٣) نقلا عن أبي المعالي شيدلة، لكنه عد فيها بعض صفات القرآن على أنها من أسمائه: كالعربي، والعزيز، والمجيد، والكريم، وغيرها.

على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداءً بنبيها بقي القرآن في حرز حريز، إنجازا لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند[2]» انتهى كلامه.

ب- التعريف بالقراءات القرآنية:

القراءات في اللغة: جمع قراءة، مصدر الفعل قرأ.

والقراءات القرآنية: الوجوه اللغوية والصوتية التي أباح الله بها قراءة القرآن تيسيرا وتخفيفا على العباد، قال الزركشي: «القراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي (المترل على محمدﷺ) في كتبة الحروف أو كيفية نطقها من تخفيف وتثقيل وغيرهما[3]».

وكان تعدد القراءات تيسيرا من الله لعباده في تلاوة القرآن، حيث أذن لبعض العامة، ممن تشق عليهم تلاوة القرآن باللغة الموحدة التي نزل بها القرآن، أن يخرج في قراءته على هذه اللغة الموحدة، ويقرأ ببعض

---

(١) سورة: الحجر: ٩.

(٢) النبأ العظيم: ١٢.

(٣) البرهان: ٣١٨/١.

الصفات التي ليس في مقدوره غيرها، تأليفا لقلوبهم، وترغيبا لهم في الأخذ بما جاء به الكتاب العزيز.. قال ابن الجزري:«كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم، لغاتهم مختلفة، وألسنتهم شتى، يعسر على أحدهم الانتقال من لغته إلى غيرها، أو من حرف إلى آخر، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج، لا سيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأْ كتابا، كما أشار إليهﷺ حين أتاه جبريل فقال له: إن الله يأمرك أن تقرئ أمتك القرآن على حرف، فقالﷺ: أسأل الله معافاته ومعونته، إن أمتي لا تطيق ذلك، و لم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف، فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع»[١].

ويعد العلماء حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» الذي تواترت السنة النبوية على ذكره[٢] ، السبب في تعدد القراءات القرآنية، لكنهم يختلفون كثيرا[٣] في توضيح السبعة الأحرف وبيان حقيقتها، وبالمقارنة بين آرء العلماء في ذلك واستدلالاتهم، ترجح لدي أن المراد بها: «نزول القرآن بلغة كل حي من أحياء العرب، وأنّ غاية ما يصل إليه اختلاف اللهجات في الكلمة الواحدة سبعة و جوه لا تزيد بحال». وهو

---

(١) النشر: ٢٢/١.

(٢) استقرأ روايات الحديث ابن جرير الطبري في مقدمة تفسيره جامع البيان عن تأويل آي القرآن:(٢٢/١١، وما بعدها)

(٣) بلغت أقوال العلماء أكثر من أربعين قولا. (البرهان: ٢١٢/١، الإتقان: ٧٨/١).

قول الإمام علي بن أبي طالب(رضي الله عنه)، وعبدالله بن عباس (رضي الله عنهما)[١] ووصفه الأزهري بأنه «مذهب أهل العلم الذين هم القدوة، ومذهب الراسخين في علم القرآن قديما وحديثا»[٢].

وعلق عليه أبو شامة المقدسي: (٦٦٥) بقوله:« هذا هو الحق؛ لأنه إنما أبيح أن يقرأ بغير لسان قريش توسعة على العرب، فلا ينبغي أن يوسع على قوم دون قوم، فلا يكلف أحد إلا قدر استطاعته، فمن كانت لغته الإمالة، أو تخفيف الهمز، أو الإدغام، أو ضم ميم الجمع، أو صلة هاء الكناية، أو نحو ذلك، فكيف يكلف غيره؟.

وكذلك كل من كان في لغته أن ينطق بالشين التي كالجيم، والصاد التي كالزاي، «والكاف التي كالجيم، والجيم التي كالكاف، ونحو ذلك، فهم في هذا بمترلة الألتغ والأرت[٣]، لا يكلف ما ليس في سعته، وعليه أن يتعلم ويجتهد[٤]». فهذا القول يتمشى مع الحكمة التي من أجلها أنزل القرآن على الأحرف السبعة، وهي التوسعة على الأمة المحمدية في تلاوة

---

(١) المرشد الوجيز: ٩٦.

(٢) تهذيب اللغة (ح ر ف): ١٣/٥.

(٣) الألتغ: من كان في لسانه لثغة؛ أي انحراف. والأرت: من كان في لسانه رتة؛ أي عجمة. (المخصص: ١١٨/٢).

(٤) المرشد الوجيز: ٩٧.

القرآن كما وضحتها الأحاديث الشريفة[١]. ولأن الروايات الثابتة عن بعض الصحابة تفيد أن المراد بينهم كان في النطق والتلاوة، لا في المعاني والأحكام، بدليل أن الرسولﷺ صوب قراءة كل منهم.

على أن ترجيح هذا الرأي، لا يعني ضعف الآراء الأخرى، فلكل قول ما يدعمه من روايات ساقها أصحابه تقوية له، أوردها الزركشي والسيوطي في كتابيهما[٢]. ونستثني منها القول بأن المراد بها القراءات السبع المشهورة اليوم، فهذا غير صحيح، بل لقد استنكره العلماء ووصفوه بأنه خطأ أوهم به التوافق العددي بين الأحرف السبعة والقراء السبعة المشهورين. قال أبو شامة: «ظن قوم أن القراءات السبع الموجودة الآن هي التي أريدت في الحديث، وهو خلاف إجماع أهل العلم قاطبة، وإنما يظن ذلك بعض أهل الجهل[٣] وقال مكي: «فأما من ظن أن قراءة كل واحد من هؤلاء القراء كنافع وعاصم وأبي عمرو أحد الحروف السبعة التي نص النبي ﷺ عليها،فذلك غلط عظيم[٤] ووجه الغلط: أن قراءات القراء السبعة إنما حددت في أوائل القرن الرابع على يد ابن مجاهد مسبع السبعة كما أشرنا، أما الأحرف السبعة فهي منذ عهد الرسول ﷺ فلا

---

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم:١٦٨- ١٧٠.

(٢) البرهان: ٢١٢/١، وما بعدها، والإتقان: ٧٨/١، وما بعدها.

(٣) الإتقان:٨٠/١.

(٤) الإبانة في معاني القراءات: ٢٥.

يعقل أن تكون هذه الأحرف مجهولة طيلة ثلاثة قرون، حتى اشتهرت على يد أولئك القراء، لا شك أن ذلك غير صحيح، يؤيده أن القراءات المتداولة والمقروء بها أكثر من سبع، كما أننا لا نجد كلمة في القرآن تقرأ على سبعة أوجه إلا القليل[١] حتى يظن أنها المراد بالسبعة الأحرف.

ولكنني أضيف هنا ما ذكره مكي بن أبي طالب عن صلة القراءات بالأحرف السبعة حيث قال: «إن هذه القراءات كلها التي يقرأ بها الناس اليوم، وصحت روايتها عن الأئمة إنما هي جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن[٢]».ويرجع عهد القراء الذين أقام الناس على طرائقهم في التلاوة إلى عصر الصحابة، فقد اشتهر منهم بالإقراء سبعة كلهم عرضوا قراءاتهم على رسول الله ﷺ وهم[٣]:

١- أبي بن كعب (ت: ٢٠هـ).

٢- عبدالله بن مسعود(ت: ٣٢هـ).

٣- أبوالدرداء (ت: ٣٢هـ).

٤- عثمان بن عفان (ت: ٣٥هـ).

٥- علي بن أبي طالب (ت: ٤٠هـ).

٦- أبو موسى الأشعري (ت: ٤٤هـ).

---

(١) الإتقان: ١/٤٦، ومثل السيوطي لذلك بكلمة (عبد، أف).

(٢) الإبانة في معاني القراءات: ٢٢.

(٣) معرفة القراء الكبار: ١/٢٩- ٣٩.

٧- زيد بن ثابت (ت:٤٥هـ). رضوان الله عنهم أجمعين.

ثم أخذ عن هؤلاء الصحابة جمع غفير من التابعين، تفرقوا في الأمصار، وعلى رأس المئة الأولى للهجرة دعت الحاجة إلى ضبط القراءة ضبطا تاما بعد أن نشأت ناشئة تقرأ القرآن وفق أهوائها، ولم تعد تأخذه عن القراء الثقات، «فأجمع رأي المسلمين على أن يتفقوا على قراءات أئمة ثقات، تجردوا للاعتناء بشأن القرآن العظيم، فاختاروا من كل مصر وجه إليه مصحف أئمة مشهورين بالثقة والأمانة في النقل وحسن الدراية وكمال العلم، أفنوا أعمارهم في القراءة والإقراء، واشتهر أمرهم ، وأجمع أهل مصرهم على عدالتهم، ولم تخرج قراءتهم عن خط مصحفهم[1]» فاشتهر من أولئك – ومن الطبقة التي تليهم – سبعة أئمة لا تزال تنسب إليهم القراءات إلى اليوم، وهم[2] (حسب سني الوفاة):

١- أبو عمران عبدالله بن عامر اليحصبي الدمشقي (٨-١١٨هـ) إمام أهل الشام.

٢- عبدالله بن كثير المكي (٤٥-١٢٠هـ) إمام أهل مكة.

٣- عاصم بن أبي النجود الكوفي (٠٠٠-١٢٧هـ) إمام أهل الكوفة.

٤- أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني (٦٨-١٥٤هـ) إمام أهل البصرة.

---

(١) إتحاف فضلاء البشر: ٦.

(٢) انظر ترجمته في : طبقات القراء (١/٦٧- ١٠٠) والبرهان في علوم القرآن: ١/٣٢٧.

٥- أبوعمارة حمزة بن حبيب الزيات (٨٠-١٥٦هـ) إمام في الكوفة بعد عاصم والأعمش.

٦- نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم المدني (٧٠-١٦٩هـ) إمام أهل المدينة.

٧- أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي (١١٩-١٨٩هـ) انتهت إليه رياسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة بن حبيب الزيات.

وأول من اختار هؤلاء السبعة: أبوبكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت:٣٢٤هـ)[١] وألف في قراءاتهم كتابا ذكر فيه روايتين لكل قارئ سماه: «القراءات السبع[٢]».

وننبه هنا إلى أن اختيار ابن مجاهد لهؤلاء السبعة من بين أئمة أعلام في القراءة، لا يعني أنهم أفضل الأئمة، فقد كان فيهم عدد لا يستهان به أفضل من بعض هؤلاء: كيعقوب الحضرمي، وأبي جعفر يزيد بن القعقاع، وعبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي... وغيرهم[٣]، ولذلك انتقده كثير من العلماء في ذلك، كما نقدوه في الاقتصار على سبعة فقط، فأوهمت العوام وأشباههم بأن هذه القراءات السبعة هي المقصودة بالحديث الشريف (**أنزل القرآن على سبعة أحرف**) قال أبوالعباس ابن عمار: «لقد فعل مُسَبِّع هذه السبعة ما لا

---

(١) الإبانة: ٦٤، غاية النهاية: ١٤٢.

(٢) كشف الظنون: ١٤٤٨/٢، حجة القراءات (المقدمة): ١٧.

(٣)البرهان: ٣٢٩/١، الإبانة: ٦٥.

ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره، أن هذه القراءات هي المذكورة في الخبر، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل هذه الشبهة[١]». لذلك قام العلماء باختيار ثلاثة آخرين من أئمة القراءة -وفق ضابط معين يجمع بينهما- فسميت قراءاتهم بالقراءات العشر، وهم:

٨- أبوجعفر يزيد بن القعقاع المخزومي المدني (ت:١٣٠هـ).

٩- يعقوب بن إسحاق بن زيد الحضرمي البصري (ت:٢٠٥هـ).

١٠- خلف بن هشام البزار الأسدي البغدادي (ت:٢٢٩هـ).

وزيد على هؤلاء من بعد، أربعة قراء كبار لتصبح أربع عشرة قراءة لم يشتهر غيرها، وهي قراءة كل من:

١١- الحسن بن أبي الحسن بن يسار البصري (١١٠هـ).

١٢- محمد بن عبدالرحمن المعروف بأبي محيص (١٢٣هـ).

١٣- يحيى بن المبارك اليزيدي (٢٠٢هـ).

١٤- أبو الفرج محمد أحمد الشنبوذي (ت: ٣٨٨هـ).

وأطلق على السبع الأول: القراءات المتواترة، وعلى الثلاث التالية: قراءات الآحاد، وعلى الأربع الأخيرة: القراءات الشاذة[٢].

---

(١) الإتقان: ١/٨٠.

(٢) لكن العبرة في القبول وعدمه على القراءة نفسها، ينظر: النشر: ١/١٤، ١١٢.

وصنف السيوطي[١] القراءات إلى ستة أنواع بحسب أسانيدها:

الأول: المتواتر: وهو ما نقله جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى منتهاه، ومثاله: ماتفقت الطرق على نقله عن السبعة، وهذا هو الغالب في القراءات.

الثاني: المشهور: وهو ما صح سنده ولم يبلغ درجة التواتر، ووافق العربية والرسم العثماني، واشتهر عند القراء، فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، ومثاله: ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة، فرواه بعض الرواة دون بعضهم. وهذان النوعان يجب اعتقادهما والقراءة بهما ولا يحل إنكار شيء منهما.

الثالث: الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف الرسم، أو لم يشتهر الاشتهار المذكور. وهذ النوع لا يقرأ به ولا يجب اعتقاده وكذلك ما بعده، ومن أمثلته: ما أخرجه الحاكم عن أبي بكرة أن النبي ﷺ قرأ ﴿**متكئين على رفارف خضر وعباقري حسان**[٢]﴾.

الرابع: الشاذ: وهو ما لم يصح سنده أو نقله الثقة ولا وجه له في العربية، كقراءة أبي السميدع: ﴿**فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً**﴾ بالحاء المهملة في (ننجيك) وبفتح اللام في كلمة (خلفك).

---

(١) الإتقان: ١/٧٩. بتصرف.

(٢) سورة الرحمن: ٧٦.

الخامس: الموضوع: وهو ما لا أصل له.

السادس: المدرج: وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة ابن عباس: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ [في مواسم الحج]فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ[١] ﴾ وقد اشترط العلماء لصحة القراءة، وجواز التعبد بها شروطا ثلاثة[٢]:

١- أن تثبت عن رسول الله ﷺ، ويصح سندها إليه بطريق التواتر، برواية العدول الضابطين الثقات عن أمثالهم؛ لأن القراءة سنة متبعة يجب فيها الاعتماد على سلامة النقل وصحة الرواية، حتى يصح التعبد بها.

٢- أن توافق القراءة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا؛ لأن الصحابة اجتهدوا في رسم المصاحف العثمانية على ما ثبت لديهم من أوجه القراءة عن الرسول ﷺ؛ لأن الأمة قد أجمعت على تلك المصاحف من غير نكير منهم[٣].

٣- أن تكون القراءة موافقة للعربية ولو بوجه من الوجوه، سواء أكان أفصح أم فصيحا، مجمعا عليه أم مختلفا فيه اختلافا لا يضر مثله؛ لأن القراءة سنة متبعة لا تعتمد على الأفشى في العربية، أو الأقيس في اللغة، بل الأثبت

---

(١) سورة البقرة: ١٩٨، والمدرج لفظ في مواسم الحج.

(٢) النشر: ١/٩-١٣، والبرهان: ١/٣٣١-٣٣٤.

(٣) تفسير الطبري: ١/٦٢.

في الأثر والأصح في النقل. فكل قراءة توافرت فيها الشروط الثلاثة المتقدمة «فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء أكانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[١].

---

(١) النشر: ١/٩.

المبحث الثاني: لغة القرآن الكريم

لغة القرآن: اللغة العربية التي سمت وارتفع شأنها، بعد أن مرت بمراحل الضعف والانقسام، وبلغت قمة المجد بالوحدة والانسجام، فاختارها الله –جل ثناؤه– ليترل بها أعظم كتاب على أكرم رسول، معجزة الدهر لسيد البشر صلوات الله وسلامه عليه.

وقد سماها العلماء العربية الفصحى أو الفصيحة، والعربية الموحدة والعربية المثالية، والعربية النموذجية، والعربية الأدبية، والعربية المشتركة[١].. وتلك أسماء، وإن اختلفت في لفظها، فإنها في مدلولها لا تختلف.

واللغة العربية –كسائر اللغات– نشأت وليدة ثم ما لبثت أن نمت وتدرجت مع الزمن حتى بلغت مرحلة النضج والكمال. والحديث عن حياتها الأولى: كيف ولدت؟ وكيف نمت؟ أمر غير مقطوع به، بل هو إلى الظن أقرب منه إلى اليقين.

ولقد حاول المؤرخون، من العرب وغيرهم، أن يستجلوا غوامض تلك النشأة ويلقوا الضوء على مراحل تطورها عبر الفترة الزمنية التي سبقت ظهور الإسلام، فلم يجدوا من النصوص القديمة ما يسعفهم؛ لأن العرب قوم أميون لم يحفلوا بالكتابة والتدوين منذ القدم فضاع تاريخ

---

(١) ينظر: لغة القرآن الكريم: ٣٦-٣٧.

لغتهم في صحرائهم الشاسعة.

التفت المؤرخون حينئذ إلى الحفريات الأثرية والنقوش القديمة التي عثر عليها في شمال وغرب الجزيرة العربية[١] فأجروا دراساتهم عليها، وخلصوا إلى أن اللغة العربية فرع من مجموعة اللغات التي ظهرت في الموطن العربي وأطلق عليها اصطلاحا: «اللغات السامية[٢]».

واتفقوا على أن العربية الأولى كانت لغة القبائل التي سكنت شبه الجزيرة من اليمن إلى الشام، ومن العراق إلى سيناء، وأن مصدرها الأول

---

(١) عثر في الشمال على ستة نقوش قديمة في ثمود ولحيان وصفوي، والنمارة وزبد وحوران، وفي الغرب: على نقوش نبطية في «البتراء» غير أن الأربعة الأخيرة أقرب في أصواتها ومفرداتها إلى العربية، لكنها ليست هي العربية المعروفة لدينا (فقه اللغة وافي: ١٠٣، الفلسفة اللغوية: ٥٠).

(٢) السامية مصطلح حديث أطلقه المستشرقون على إحدى الفصائل اللغوية التي نشأت في الشرق الأوسط، ودلت القرابة بين لغاتها على أنها -في الأصل- لهجات للغة واحدة، هي لغة: «سام بن نوح» الذي ورد ذكره في التوراة.. وتشمل اللغات التالية:

أ- الأكادية، والآشورية البابلية، والكنعانية(العبرية والفينيقية والسريانية)، والآرامية.. وتسمى هذه الطائفة: بالسامية الشمالية.

ب- العربية، واليمنية القديمة، والحبشية السامية، وتسمى: بالسامية الجنوبية. والواقع أنها تسمية اصطلاحية، ليس لها أي سند تاريخي؛ إذ لا يعرف التاريخ أمة قديمة تحمل هذا الاسم فتكون «السامية» لغتهم (علم اللغة «وافي»: ٢٠١، وتاريخ الأدب العربي «بروكلمان»: ٦٣).

عاربة أهل اليمن، إلا أنها لن تبلغ حد النضج والسمو في (اليمن) بل بلغت ذلك في (الحجاز) عند ما استقر بها المطاف في رحاب البيت العتيق، فكتب لها أن تهذب وتبلغ أوج الكمال[١] وكان أول تهذيب للعربية على يد «يعرب بن قحطان» رأس العرب، ثم تفتق بها لسان سيدنا إسماعيل بن إبراهيم –عليهما السلام– في «مكة»، ومنها انطلقت هذه اللغة إلى قبائل الجزيرة العربية عن طريق الاختلاط وتبادل المنافع[٢].

ومع أنه لا يمكن الجزم بأن تلك اللغة هي العربية الفصحى المعروفة في الآثار الجاهلية التي وصلت إلينا، فإن المؤرخين يذهبون إلى أن فصحانا هذه لا يرجع تاريخها إلى أبعد من النصوص الجاهلية التي تضمنت الشعر والنثر: وهي اللغة التي سادت الجزيرة قبل قرنين من بزوغ فجر الإسلام[٣].

ثم اشتدت حاجة القبائل العربية في الجاهلية الأولى إلى الاتصال بعضها ببعض بحكم الجوار وتبادل المنافع عن طريق التجارة وفي مواسم الحج، وحفزهم ذلك إلى الاتفاق على وسيلة لغوية تجمع بينهم وتوحد شملهم فاتجهوا إلى اختيار مركز ممتاز في ثقافته، قوي في نفوذه، يلتفون حوله ويطمئنون إليه، فتكون لغته أداة القول المشتركة بينهم..

---

(١) تاريخ آداب العرب: ٨٧.

(٢) المزهر: ١/٢٨، تاج العروس (عرب).

(٣) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي:١٠٤ وما بعدها) مقدمة الصحاح: ١٣، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨/٥٤٠

وتضافرت الأسباب لجعل مكة مركزا للوحدة الثقافية والسياسية بين القبائل، واجتمعت آرؤهم بها على لغة موحدة آخذة من كل لهجة أحسنها تكون لهم جميعا لسانا مشتركا يتم به التفاهم في مجالات القول الرفيعة. ثم توالت جموعهم إلى مكة ليطوفوا بالبيت العتيق الذي قدسوه قبل الإسلام، ليشهدوا منافع لهم في أسواقهم التجارية.

وفي أثناء ذلك يعقدون مناظرات أدبية للشعر والخطابة في تلك الأسواق، فكان لزاما على الشاعر أو الخطيب الذي يطمح إلى التأثير في ساميعه والتفوق على مناظريه أن يتحدث إلى القوم بلغة أدبية رفيعة خالية من الكشكشة والعنعنة وغيرهما من صفات اللهجات المحلية، يألفونها جميعا وينظرون إليها نظرة إعجاب وافتخار، كانت هي اللغة النموذجية، لغة الخاصة من الناس، التي استحقت أن تروى آثارها ويعتز بها طويلا[١].

وهكذا ارتقت العربية رقيا كبيرا في أواخر العصر الجاهلي، وتطورت لهجاتها إلى لغة موحدة، بدأت ونمت وازدهرت واكتملت قبل الإسلام، وشاعت في أنحاء الجزيرة العربية على ألسنة الفصحاء والبلغاء ، وعد ما عداها من لهجات العامة التي يستخدمونها في حياتهم القبلية غير فصيح، تتفاوت في الرداءة والجودة بقدر بعدها أو قربها من اللغة الأدبية المشتركة[٢].

---

(١) في اللهجات العربية: ٤٠، نظرات في اللغة: ١٢٨.

(٢) المعجم العربي: ١/١٥.

أصل الفصحى:

وتميزت اللغة الأدبية أو اللغة الفصحى من لهجات الخطاب والمحادثة، ووضحت صورتها في الأذهان؛ إذ هي لغة التأليف والأدب الرفيع، لكن الباحثين ظلوا يستطلعون المجهول، فيحاولون البحث في الماضي عن أصل الفصحى الذي تنتمي إليه، أهو لهجة إحدى قبائل الجزيرة العربية تطورت ثم سادت؟ وما هذه اللهجة؟ أهي لهجة قريش أم تميم أم غيرهما؟ أم هي خليط منتقي من سائر اللهجات العربية؟ أم هي لغة أخرى لا تمتّ إلى اللهجات العربية السائدة بصلة؟.

وفي ذلك اختلف العلماء، فنذكر لهم الآراء التالية:

١- ذهب علماؤنا الأقدمون -وتبعهم في ذلك كثير من المحدثين(١)- إلى أن هذه اللغة «الفصحى» كانت في الأصل لهجة قريش، وبحكم نفوذ قريش السياسي ومكانتهم الاجتماعية والروحية؛ لانفرادهم برعاية الحرم والقيام بشؤونه، وسيطرتهم على اقتصاد شبه الجزيرة العربية بمركزهم التجاري، أتيحت للهجة القرشية فرصة الاحتكاك ببقية اللهجات العربية والأخذ منها فامتازت بغزارة مادتها اللغوية، ورقة أسلوبها، وقدرتها الفائقة على التعبير.. فأعجب بها القوم واتخذوها لغة

---

(١) من أصحاب هذا الرأي أحمد بن فارس والفاربي وابن خلدون، والدكتور وافي، والدكتور طه حسين، والدكتور شوقي ضيف.

لأدباء العرب جميعا فطبقت شهرتها آفاق الجزيرة قبل الإسلام.

قال أبو نصر الفارابي (٣٥٠هـ): «كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عما في النفس[١]».

وقال أحمد بن فارس (٣٩٥هـ): أجمع علماؤنا بكلام العرب والرواة لأشعارهم والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالهم أن قريشا أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة، وذلك أن الله –جل ثناؤه- اختارهم من جميع العرب واصطفاهم واختارهم منهم نبي الرحمة محمداﷺ فجعل قريشا قطان حرمه وجيران بيته الحرام، وولاته فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ويتحاكمون إلى قريش في أمورهم..

وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصفى أقوالهم، فاجتمع من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلائقهم التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنك لاتجد في كلامهم عنعنة تميم، ولا عجرفية قيس ولا كشكشة أسد ولا كسكسة ربيعة[٢]..».

ويقول العلامة ابن خلدون (٨٠٨هـ) «كانت لغة قريش أفصح اللغات

---

(١)الاقتراح: ٢٢، المزهر: ٢١١/١.

(٢)الصاحبي في فقه اللغة: ٣٣.

العربية وأصرحها لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاهم» وقد بلغت في الفصاحة شأوا بعيدا، حتى أن القبائل العربية على نسبة بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية(١)».

وأيد بعض الباحثين المتأخرين هذا القول، وأرجع ذلك إلى نظرية شائعة في قوانين اللغات، حينما تنشر في مساحة واسعة من الأرض، وتتفرع إلى لهجات فينشأ بينها صراع لغوي يكتب فيه الفوز لإحداها، فتطغى على جميع اللهجات الأخرى في المحادثة، وتستأثر بميادين الأدب ونواحي القول شعره ونثره.. وضرب لذلك أمثلة بالفرنسية والأسبانية والإيطالية، ولم يكن للعربية أن تفلت من هذا القانون العام الذي كتب النصر فيه أخيرا للهجة القرشية على أخواها من لهجات الجزيرة، فأصبحت، بعد تغلبها، لغة الآداب عند جميع قبائل العرب(٢)..

وهذا القول هو الذي أميل إلى ترجيحه واختياره، كما يؤكد بعض الباحثين على أن لغة قريش هذه هي اللغة العربية الفصحى التي فرضت نفسها على قبائل الجزيرة ثم سادت وانتشرت بترول القرآن الكريم بها، لكنه يستدرك ثانية ليوضح زمن انتشارها، يقول: «أما نحن فنتوسط ونقول: إنها سادت قبل الإسلام حين عظم شأن قريش وحين أخذت «مكة» تستحيل إلى وحدة

---

(١)مقدمة ابن خلدون: ٥٥٥.

(٢)فقه اللغة (وافي): ١٠٨-١١٢.

سياسية مستقلة مقاومة للسياسة الأجنبية التي كانت تتسلط على أطراف البلاد العربية.. ولكن سيادة لغة قريش قبل الإسلام لم تكن شيئا يذكر، ولم تكد تتجاوز الحجاز، فلما جاء الإسلام عمت هذه السيادة وسار سلطان اللغة واللهجة مع السلطان الديني والسياسي جنبا إلى جنب[1]».

كما يعلل باحث آخر[2] لسيادة اللهجة القرشية على سائر أخواتها بأن شيوع لهجة بعينها دون نظيراتها، لا بد أن تقترن به حالة سياسية أو روحية أوحضارية تهيئ لها هذا الشيوع والانتشار بحيث تصبح لغة الفكر والشعور للجماعة الكبيرة فتتخذها أداة لأدبها بينما تظل وحداتها الصغيرة تتحدث في حياتها بلغاتها المحلية.

فنحن لا نعدو الواقع إذا قلنا إن لهجة قريش هي الفصحى التي عمت وسادت في الجاهلية، لا في الحجاز ونجد فحسب، بل في كل القبائل العربية شمالا وغربا وشرقا، وفي اليمامة والبحرين، وسقطت إلى الجنوب وأخذت تقتحم الأبواب على لغة حمير واليمن، وخاصة في أطرافها الشمالية حيث منازل الأزد وخثعم وهمدان وبني الحارث بن كعب في نجران، وتمت لها السيادة والريادة في الفترة التي سبقت ظهور الإسلام.

٢- هناك نفر من المستشرقين خالفوا في قبول هذه الحقيقة، فأجمعوا

---

(١) في الأدب الجاهلي: ١٠٥.

(٢) د.شوقي ضيف: ١٣٣.

القول بأن الأدبية «الفصحى» لغة أخرى غير القرشية(١)، ثم لم تتفق كلمتهم بعد على تحديد أصل لهذه اللغة.

فزعم «نالينو» أنها إحدى اللهجات النجدية، تهذبت في زمن مملكة كندة، وأصبحت اللغة الأدبية السائدة بين العرب، واستدل على ذلك بأنها لغة القبائل التي اشتهرت بنظم الشعر، وأن اللغويين والنحاة قد جمعوا مادتهم اللغوية وشواهدهم من وسط الجزيرة.

وتابعه في ذلك «بلاشير» لكنه أضاف: أن الفصحى مشتقة من الشعر الجاهلي والقرآن معا، وأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية، وإنما على لغة هذا الشعر، وهي لغة تولدت من لهجة محلية ارتفعت إلى مرتبة لغة أدبية، ولم يوضح لنا هذه اللهجة المحلية بعد أن نفى أن تكون هي لهجة قريش(٢).

وكذلك قال«فيشر»: إنها لهجة معينة لقبيلة معينة، لكنه لم يسم هذه القبيلة أو يعز اللغة إليها.

أما «جويدي» فناقض سابقه وأصر على أنها مزيج من لهجات أهل نجد ومن جاورهم.

وزعم «نولدكه» بأن الفصحى خليط من لهجات الحجاز ونجد وإقليم

---

(١) انظر في ذلك: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦٢٦/٨، وما بعدها. وقارن بتاريخ الأدب العربي (ضيف): ١٣١/١- وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب العربي (لبلاشير): ٨٧.

الفرات، تداخلت في أجزائها الأساسية وتركب منها اللهجة الفصحى.

واكتفى (بروكلمان) بالقول بأن لغة الشعر القديم لم تقم على أساس اللهجات الدارجة، بل كانت لغة فنية فوق اللهجات، وإن غذتها جميعا[١].

ويبدو أن هذه الآراء على ما بينها من تضارب تتفق على إنكار كون اللهجة القرشية أساسا لتطور الفصحى.. لكنها لا تعتمد فيما تجنح إليه على أدلة نقلية أو عقلية مقبولة سوى الحدس والافتراضات التي لا يمكن التعويل عليها في تقرير الحقائق. وأما ما استدل به ((نالينو)) من أن اللغويين والنحاة قد جمعوا مادتهم اللغوية وشواهدهم من أواسط الجزيرة حيث القبائل النجدية وما جاورها، وتركوا الأخذ عن قريش، فإن ذلك مسلم له لو أن هذا العمل تم قبل مجيء الإسلام، أما وقد تأخر هذا الجمع إلى منتصف القرن الثاني عندما دخل الجزيرة أخلاط من الشعوب الأعجمية التي اعتنقت دين الإسلام، وأثر اختلاطهم بالقرشيين على سلامة ألسنتهم، وأفسد سليقتهم اللغوية، فإن الرواة لم يطمئنوا إلى القبائل المتحضرة أو المجاورة للروم أو الفرس أو الأحباش، واكتفوا بالأخذ عن فصحاء الأعراب في القبائل البعيدة عن مواطن الخلطة. وليس في عملهم هذا ما يشكك بنقاء اللغة القرشية وسلامتها أثناء العصر الجاهلي وفترة نزول القرآن الكريم.

ويكفينا -نحن المسلمين- اطمئنانا إلى ما رجحناه قول الخليفة

---

(١) تاريخ الأدب العربي (بروكلمان): ١/٤٢.

الراشد عثمان بن عفانﷺ وهو ممن عاصر الفترة الذهبية من حياة الفصحى للرهط القرشيين الثلاثة، أثناء كتابة القرآن: «**إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا**[١]» وقبله كتابة عمر بن الخطاب لعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما وقد بلغه أنه يقرئ القرآن بلغة الهذليين: «إن القرآن نزل بلسان قريش، فأَقْرِئْ القرآن بلغة قريش لا بلغة هذيل[٢]..».

ومعلوم أن لغة القرآن الكريم التي أنزله الله تعالى بها هي لغة قريش «العربية الفصحى» وهي التي نعني بها في أبحاثنا هذه، كما أنها هي التي ينصرف إليها لفظ «العربية» عند الإطلاق.

ونضرب صفحا، في هذا الصدد، عما ادعاه بعض المستشرقين الحاقدين على الإسلام والعربية، المنكرين للحقائق والمسلمات البدهية،حين زعم «فولرز» أن القرآن الكريم في بادئ الأمر كان غير معرب، إذ كان بلهجة قريش الدارجة، وهي –في زعمه- لهجة شعبية غير معربة حتى جاء النحاة فصاغوه في لغة البدو المعربة[٣]. لما في هذا القول من التضليل المتعمد، والتهجم الصريح على قدسية هذا القرآن العظيم، الذي وعد الله بحفظه وصونه من أن تمتد إليه يد عابث أو يسئ إليه عمل حاقد.. وقد

---

(١) الإتقان: ٥٩/١، فتح الباري:١١/٩.

(٢) فتح الباري: ٩/٩.

(٣) العربية (فك): ٣.

أجمع المسلمون على تواتر آياته وكلماته وحروفه كما أنزلت على قلب رسول الله ﷺ حتى قراءته العشر التي رواها العلماء من بعده، وتم جمعه وكتابته في المصاحف بطريقة غاية في التوثيق والإتقان كما أشرنا.

وفساد هذا الزعم، من جهة العقل، لا يحتاج إلى دليل؛ لأن الإعراب ملكة راسخة في سليقة العربي لا يستطيع أن يتخلى عنها إلا مضطرا، وكل ما قام به النحاة في القرن الثاني وما بعده، إنما هو استخلاص لقواعد تلك الملكة، وإبراز لها في صورة دراسة، يلجأ إليها من يريد أن يعصم لسانه من الوقوع في اللحن.

أما أولئك الأعراب الأقحاح فقد كانوا يتكلمون بها سجية في طباعهم يشب عليها الصغير ويشيب عليها الكبير، ولم نسمع أن أحدا من أولئك الأعراب جاء إلى النحاة ليتعلم مصطلحات قواعدهم الإعرابية بل إنهم يخرجون إلى البادية ويقيمون بينهم الأشهر والأعوام ليستمعوا إليهم ويؤسسوا القواعد على سنن لغتهم ومجاري كلامهم.

ثم ما الذي يقوله «فولرز» عن الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا وتقوم أوزانه وقوافيه على ملاحظة ذلك النظام الإعرابي؟ إن إنكاره هذا الشعر لاسبيل إليه؛ لأن العقل يحيل أن يكون قد ألف غير معرب الكلمات؛ إذ إن عدم إعرابها يترتب عليه اضطراب أوزانه واختلال موسيقاه...

وواضح أن الزعم يفضي إلى القول بأن قواعد اللغة التي تضبطها في المفردات والتراكيب، إنما هي من اختراع النحاة في العهود الإسلامية ولم تكن

معروفة من قبل أو مستعملة في الأسلوب العربي القديم، كما قال «كوهين»[١].

وأرى أنه لا يمكن لعاقل أن يتصور أنه بوسع أحد ما أن يخترع قواعد لغوية ثم يرغم الناس عليها؛ لأن قواعد اللغة السليقية ليست من الأمور التي تخترع أو تفترض على الناس، وإنما تنشأ من تلقاء نفسها وتتكون بالتدريج.

والحق أن بعض المنصفين من المستشرقين أنفسهم لم يرتضوا هذا القول فأنكروه، وكان من بينهم: يوهان ونولدكه وجاير ورينان[٢]، يقول أحدهم: «.. أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن[٣] قد حافظ أيضا على غاية التصرف الإعرابي، فهذا أمر وإن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالا للشك في إعراب كلماته إلا أن مواقع الكلام الاختيارية لا تترك أثرا للشك فيه كذلك، انظر مثلا آية ٢٨ من سورة فاطر: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ وآية ٣ من سورة التوبة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ وآية ١٢٤ من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ﴾ وآية ٨ من سورة النساء: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فمثل مواقع الكلمات في هذه الآيات.. لا يمكن إلا أن تكون في لغة لا يزال

---

(١) فقه اللغة (وافى): ٢١٣.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام: ٨/٥٤٧، ٦٢٧. تاريخ الأدب العربي (ضيف): ١/١٠٥.

(٣) القرآن الكريم بخلاف النثر والشعر.

الإعراب فيها حيا صحيحا[١].

فهل يسلّم لنا -بعد هذا- الرأي الذي سقناه أولاً واطمأنت نفوسنا إليه؟.

أثر الإسلام فيها:

استقبلت العربية الموحدة كتاب الله العزيز فرحة مستبشرة تفتح صدرها لتعي ألفاظه ومعانيه. وتبسط ذراعيها لتضم آياته وعظاته، وكأنها البحر سعة وانفراجا، وتحدث بها الرسول ﷺ وانتشر بها الدين الجديد، فأصبحت منذ ذلك الوقت: لغة القرآن الكريم والحديث الشريف والإسلام العظيم، وقد أضفى عليها هذا الحدث الكبير طابعا فريدا يميزها عن سائر اللغات، ويربطها بالدين والعبادة، عبادة الله الواحد الأحد لأول مرة في التاريخ.

لقد كان نزول القرآن بالعربية الموحدة بالغ الأثر فيها إذ هيأ لها أسباب الرفعة والارتقاء والحفظ والبقاء، فبمقدار عظمة هذا المؤثر كان التأثير قويا وحجمه كبيرا، وحينما نبحث عن هذا الأثر لنضع أيدينا عليه نشعر أنه يندرج تحت النوعين التاليين:

الأول: أثر عام: يكمن في تعزيز القرآن الكريم شأن الوحدة اللغوية بتروله باللغة الأدبية الموحدة أو اللغة الفصحى التي آثرها فصحاء العرب

---

(١) العربية (فك): ٣.

واتخذوها لغة القول والفن الرفيع للأدب شعره ونثره.. فقوي بذلك سلطانها واشتدت شكيمتها، وثبتت دعائمها، وارتفع مستواها ارتفاعا لم يسبق له نظير في لغات الأمم. حقا لقد نزل القرآن بلغة العرب التي كانوا ينظمون بها شعرهم ويلقون بها خطبهم، ويتحدث بها فصحاؤهم ممن سلمت ألسنتهم، ومصداق ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ ﴾[١] ومجيء صفة (مبين) نعتا للسان العربي والقرآن والرسولﷺ اثنتي عشرة مرة في القرآن الكريم[٢]..)).

وبدهي أن هذا القول ينفي ما ذهب إليه بعضهم[٣]من أن القرآن الكريم هو الذي وحد اللهجات العربية المتباينة قبل الإسلام وصهرها في بوتقة واحدة أفرزت لنا هذه اللغة الفصحى التي لا تزال مستعملة إلى اليوم لغة التأليف والكتابة، وذلك لما ينطوي عليه هذا المذهب من إنكار لوجود اللغة الأدبية الموحدة قبل الإسلام، وأن القرآن الكريم جاء بلغة جديدة لم تكن مألوفة للعرب من قبل نزول القرآن .

والحق أن اللغة الأدبية كانت شائعة رائجة قبل نزول القرآن الكريم بأكثر من قرن ونصف، وقد استوت على سوقها، وتسنمت مرتبة عالية

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) المعجم المفهرس: ١٤٣.

(٣) الفصحى لغة القرآن: ٣٨. وتاريخ الأدب العربي (ضيف) ١/١٣٧.

في القول. يؤكد لنا ذلك ما رواه الثقات من التراث الأدبي الجاهلي في شعره ونثره الذي يمثل لنا الوحدة اللغوية في أرقى مظاهرها، وقد خلت من الصفات اللهجية الخاصة. ولا يعقل أن الرواة رووها باللغة الموحدة وغيروا من تلك الصفات الخاصة؛ لأنه إن أمكن عمل ذلك في النثر، فإن الوزن الشعري يأباه في أكثر الأحيان.

لذا فلا مفرّ من القول «بأن اللغة الأدبية كانت موحدة قبل الإسلام، وظلت موحدة بعده، وقد خلت من الصفات المحلية للهجات[1]» ويبرز أثر القرآن حينئذ بزيادة قوتها وسلطانها، وتوسيع رقعة انتشارها وشمولها؛ لأن قوة الشعور الديني دفعت المؤمنين إلى تفهم القرآن الكريم والتعبد به، و اتخاذ لغته لغة دينية تربطهم بعقيدته.

وهكذا أتاح القرآن للعربية أكبر فرصة للانطلاق من إقليميتها المحدودة في الجزيرة العربية إلى مشارف العالم الإسلامي، حين أصبحت لغة العقيدة والدين لكل من نطق بكلمة الإخلاص، ومنحها شرفا ومهابة لم تتوفر لغيرها من اللغات.. أدرك ذلك علماء اللغات المقارنين، يقول بروكلمان: «بفضل القرآن بلغت العربية من الاتساع مدى لا تكاد تصل إليه أي لغة من لغات الدنيا، والمسلمون جميعا مؤمنون بأن العربية هي وحدها اللسان الذي أحل لهم أن يستعملوه في صلواتهم، وبهذا اكتسبت

---

(١) في اللهجات العربية: ٤١.

العربية منذ زمن طويل مكانة رفيعة فاقت جميع لغات الدنيا الأخرى[(١)]».

وقال آخر[(٢)] له تجربة واسعة في المقارنة بين اللغات القديمة والحديثة: «إن اللغة العربية أطول اللغات الحية عمرا، وأقدمهن عهدا، والفضل في ذلك راجع إلى القرآن، فالإلياذة وبلاغتها وسائر منظومات هوميروس وهسيبروس على علو مترلتهما لم تقم للغة اليونانية دعامة ثابتة حتى في بلادها ولم تقو على مقاومة التيار الطبيعي، لكن القرآن وطد لغة قريش في بلادهم وأذاعها في جميع البلدان العربية وفي سائر البلاد، فلولا القرآن لكان العرب اليوم يتخذون لهجاتهم وسائل إلى التعبير عن وجدانهم وأفكارهم، ولأصبحت أمتنا العربية شعوبا تتكلم لغات مستقلة كالألمانية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية».

فبفضل هذا القرآن العظيم امتدت الحياة في لغة قريش نحو خمسة عشر قرنا من الزمان وستبقى كذلك إن شاء الله تعالى، ولولا الإسلام لم يستطع إنسان أن يفهم ما أثر من تلك اللغة قبل القرآن بقرن أو بقرنين، فأقدم نصٍّ من آثار العربية كأحدثها يفهمه العربي الآن وكأنه في زمن قائله كل ذلك بفضل حفظ القرآن لهذه اللغة وضمان البقاء لها من الله تعالى إلى آخر الليالي والأيام.

---

(١) تاريخ الأدبي العربي (بروكلمان): ١/٤٣.

(٢) الأستاذ سليمان البستاني مترجم «الإلياذة» إلى العربية.. (الفصحى:٥٥).

الثاني: أثر خاص، نلحظه بوضوح في تهذيب القرآن للغة العربية، وتنقيحها مما يشوبها ويؤثر في فصاحتها، ورفعها إلى أعلى المستويات بما أضافه إليها من معان جديدة ومصطلحات إسلامية لم تكن مألوفة بالمعنى الجديد للعرب.

قال ابن فارس: «كانت العرب في جاهليتها على إرث من آبائهم في لغاتهم وآدابهم، ونسائهم وقرابينهم، فلما جاء الله –جل ثناؤه– بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفّى الآخر الأول[١]..» وضرب أمثلة لما جاء به الإسلام من ألفاظ نحو: الإيمان والإسلام والكفر والنفاق والصلاة والزكاة والصيام والحج وغيرها من المصطلحات الشرعية، وبين أن العرب كانت لا تعرف لها إلا المعنى اللغوي العام ثم جاء الشرع وقيده بنوع خاص من عمومه واستشهد لكل معنى لغوي بشاهد يؤكده[٢]، ومن ذلك مثلا: الصيام؛ «أصله عندهم: الإمساك.. يقول شاعرهم:

خيل صيام وخيل غير صائمة تحت العجاج وخيل تعلك اللجما[٣]

ثم زادت الشريعة النية وحظرت الأكل والمباشرة وغير ذلك من شرائع الصوم[٤]، ولم يعرفوا في الفسق إلا قولهم: فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها. وجاء

---

(١) الصاحبي: ٧٨.

(٢) نفسه: ٨٣-٨٦.

(٣) البيت للنابغة الذبياني (ديوانه: ٩٥)، واللسان (ص و م).

(٤) الصاحبي: ٨٥.

الشرع بأن الفسق: الإفحاش في الخروج عن طاعة الله جل ثناؤه[١]».

(١) نفسه: ٨٣.

الفصل الأول: جمع اللغة وتدوينها

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: اللحن.

المبحث الثاني: رواية اللغة.

المبحث الثالث:تدوين اللغة.

المبحث الأول: اللحن

قامت في أواخر القرن الأول الهجري حركة علمية كبيرة في المحيط اللغوي، عرفت «بجمع اللغة العربية وتدوينها» قصد منها خدمة كتاب الله العزيز بحفظ لغة التتريل.

وشهد القرن الثاني مولد عمل معجمي فريد، تفتقت عنه العقلية العربية، في سبيل الحفاظ على لغتها بجمع اللغة في كتب مرتبة شاملة.

وتدرج القرن الثالث ليطور منه ويضيف إليه، ثم ترك للقرنين التاليين مشهد نضجه وكماله.. وبظهور «المعاجم[١]» إلى حيز الوجود، كانت تلك أعظم خطوة للمحافظة على لغة القرآن وصونها من عوادي العجمة وغوائل التحريف.

وكان الأثر القرآني كبيرا في نفوس العلماء القدامى تجاه هذه اللغة، فمنذ أن ارتبطت العربية بالكتاب العزيز اهتم العلماء بها، وأفرغوا الوسع في حفظها وضبطها وتدوينها، وسلكوا في ذلك طرقا مختلفة ومراحل متداخلة تقوم على الرواية والإفتاء والتعليم والإملاء في التأليف اللغوي حتى القرن الثالث الهجري[٢]، وكان الدافع إليها جميعا هدفا دينيا واحدا

---

(١) ذهب سيبويه إلى أن اسم الفاعل أو المفعول من أفعل يجمع جمع مؤنث سالما ولا يكسر كأعجم فهو معجم ومعجمات، وأجاز تكسيره آخرون، وقد أقر مجمع اللغة العربية بالقاهرة جواز الجمعين (المعجم الوسيط: ٥٩٢/٢ «عجم»).

(١) المزهر: ١٦٨/٢، وما بعدها.

عبر عنه ابن خلدون بقوله: «فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب والتدوين خشية الدروس، وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث، فشمر كثير من أئمة اللسان؛ لذلك وأملوا فيه الدواوين[١] ذلك أن خدمة الكتاب العزيز تستلزم خدمة لغته والحفاظ عليها من أن يتطرق إليها خلل التصحيف أو عور التحريف، وصيانة ثروتها اللفظية الهائلة من الضياع؛ لأن في ضياعها -لاسمح الله- ضياعا للقرآن واستغلاقا لمعانيه، وجهلا بتعاليمه وأحكامه وآدابه -التي هي مناط التكليف فيه- فلأجل ذلك «دونت اللغة بواسطة المعجمات وسائر الكتب اللغوية خشية أن يضيع بعضها، أو يندس إليها غريب تنبو عنه أصولها وقواعدها[٢]».

وكان أول ما عني به العلماء ألفاظ القرآن، لأنها أساس فهم الكتاب الكريم، ولأنها تكون مادة كبيرة من مواد اللغة، فهي «لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وماعداها –وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها- هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة[٣]..» تبعا لذلك

---

(٢) المقدمة: ٤٨٤، الدروس: درس الرسم دروسا: عفا، بضم الدال. وهو البلى والفناء.(القاموس: درس).

(٣) مقدمة الصحاح: ٤٢.

(٣) المفردات في غريب القرآن: ٦.

قام فريق من العلماء - عرفوا باللغويين - بالبحث عن ألفاظ اللغة رواية وجمعا وتدوينا، وسلكوا عدة محاولات في التأليف توجت بظهور المعجم الشامل.

ويعد اللحن في القرآن الكريم السبب الرئيس لوضع العلوم اللغوية في العربية، وكان في أول أمره ضيئلا لا يكاد يسمع إلا نادرا، وما سمع منه كان خارج دائرة القرآن الكريم. وبامتداد الفتح الإسلامي واتساع الرقعة الإسلامية لتشمل فارس والروم وغيرهما دخل الناس في دين الله أفواجا، ولم يفرق الإسلام بين الناس تبعا لأجناسهم بل دعا إلى الوحدة والمساواة في ظل تشريعاته العادلة، فاختلط العرب بغيرهم اختلاطا واسعا شمل نواحي الحياة كلها، وكان له أكبر الأثر في فشو اللحن فشوا لم تستطع الفصحى مقاومته، ولم تقو على صد تياره الجارف، فتغير نطق كثير من الحروف والألفاظ عما عهد في الفصحى، وساء فهم معاني المفردات عما يفهمه الفصحاء، واستعملت ألفاظ وتراكيب على غير الوجه الذي كان يستعمله العرب الخلص، فأدرك العلماء خطره ووضعوا المؤلفات المختلفة للوقوف في وجهه.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نعرف به، ونؤرخ لظهوره:

التعريف به ومظاهره:

يطلق اللحن ويراد به في العربية أحد المعاني الآتية(١):

(١) انظر الصحاح واللسان ومقاييس اللغة: مادة (ل ح ن).

١- الفطنة والذكاء، ومنه الحديث: **لعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر..))**[١].

٢- إمالة الكلام عن جهته الصحيحة والتورية به، ومنه قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾[٢].

٣- تنغيم الكلام والتغني به، ومنه قول الشاعر:

منطق بارع وتلحن أحيا نا وخير الكلام ما كان لحنا[٣]

٤- الخطأ في اللفظ أو المعنى، روى القالي عن ابن الأعرابي قوله: ((يقال: قد لحن الرجل (من باب فتح) يلحن لحنا فهو لاحن؛ إذا أخطأ، ولحن (من باب فرح) يلحن لحنا إذا أصاب وفطن[٤])) والمعنى الذي من باب (فتح) هو الذي نعنيه هنا، كما أنه المعنى الذي ينصرف إليه اللفظ عند الإطلاق.

وقد اتخذ هذا النوع منذ ظهوره لونين متميزين بعضهما عن بعض، هما:

الأول: اللحن في الألفاظ: وهو نطق اللفظ على وجه يخالف ماعهدته الفصحى، سواء كان ذلك بتسكين أواخر الكلمات فرارا من ضبطها وإعرابها، أو الوقوع في الخطأ في بنية الكلمة العربية ذاتها من حيث

---

(٢) رواه الشيخان. (البخاري: ٢٨٨/٥، مسلم:٤/١٢)

(٣) سورة محمد: ٣٠.

(٤) العقد الفريد: ٤٨٠/١. والبيت لمالك بن أسماء الفزاري.

(٥) أمالي القالي: ٧/١. وينظر: اللسان (لحن)

الضبط أو القلب أو الحذف أو التقديم، وكان ذلك مدعاة لظهور علمي (النحو والصرف) اللذين اهتما بتقويم اللفظ العربي في بنائه وبنيته وفي إعرابه[1]. ونضرب لذلك بمثالين في القرآن وغيره: «روى الجاحظ: أن الوليد بن عبدالملك لما تولى الخلافة خطب بالناس فقرأ الآية (ياليتها كانت القاضية): بضم التاء في (القاضية)، وكان عمربن عبدالعزيز مع الجالسين، فقال: عليك وأراحنا الله منك[2]».

ونحوه مارواه أيضا: أن تاجرا من الفرس باع جنود المسلمين دواب رديئة، فاستجوبه الحجاج، فأجابه: «شريكاتنا في هوازها وشريكاتنا في مداينها، وكما تجيء تكون» أي شركاؤنا بالأهواز والمدائن يبعثون بها إلينا، ونحن نبيعها على وجوهها[3].

ويندرج تحت هذا النوع: اللحن في نطق الحروف، وإخراجها من غير مخارجها الصحيحة.. روي أن عبيدالله بن زياد قال يوما لهانئ بن قبيصة وقد ظنه من الخوارج: «أهروري منذ اليوم»؟ يريد أحروري[4].

وبسبب هذا النوع من اللحن فكر العلماء في دراسة الأصوات ومخارجها[5].

---

(١) انظر ص: ١٣٧.

(٢) البيان والتبيين: ٢/٢٠٥.

(٣) البيان والتبيين: ١/١٦٢، والتاجر هو أبو الجهير الخراساني النخّاس.

(٤) الكامل في اللغة والأدب: ١/٣٧٢.

(١) انظر ص: ١٢٧، من المبحث.

الثاني: اللحن في المعنى: وذلك باستعمال الألفاظ أو التراكيب على وجه لم يستعمله العرب الخلّص، ودخول ألفاظ أعجمية في الأسلوب العربي دون الخضوع لطريقة التعريب، فجمعت اللغة ودونت الدواوين للاحتراز من الوقوع في هذا اللحن، وكان ذلك سببا مباشرا لتدوين اللغة وتأليف المعاجم.

ونضرب لذلك بالمثال الآتي، ولكن في غير القرآن: روى الجاحظ عن أبي الحسن المدائني (ت: ٢١٥) قال: «كانت في عبدالله بن زياد لُكنة -لأنه كان قد نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة- فقال مرة: افتحوا سيوفكم، يريد: سلوا سيوفكم، فقال يزيد بن مفرغ (يهجوه):

ويوم فتحت سيفك من بعيد أضعت وكل أمرك للضياع[١]»

ظهوره وانتشاره:

لا يعرف على سبيل الجزم متى عرف اللحن -بمعنى الخطأ في الإعراب والفهم- وما روي بأن «أول لحن سمع في البادية قولهم: سقطت عصاتي[٢]» لا يدل على قائله فضلا عن تحديد زمنه، إلا أنه من المرجح لدى الباحثين أن اللحن -بهذا المعنى- لم يُعرف إلا بعد ظهور الإسلام، ولم يكن -على الأرجح- موجودا في الجاهلية، ويستدلون لذلك بقصة

---

(٢) البيان والتبيين: ٢/٢١١. والأساورة قوم من العجم نزلوا «البصرة» قديما.

(١) مراتب النحويين: ٢٦. والبيان والتبيين: ٢/٢١٩.

الوفد الذي جاء إلى النبيﷺ ليعلن إسلامه، فلما قام خطيبهم بين يديه ليتكلم، لحن في كلامه، فاستفظعوا لحنه، وظهر أثر ذلك في وجه الرسول ﷺ أيضا.. فقال للوفد: «**أرشدوا أخاكم فقد ضل**[١]». بل يرى بعضهم: أن في هذه القصة تحديدًا لأولية اللحن في الإسلام؛ «إذ لوكان اللحن معروفا في العرب قبل ذلك العهد مستقر الأسباب التي يكون عنها، لجاءت عبارة الحديث على غير هذا الوجه؛ لأن الضلال خطأ كبير، والإرشاد صواب أكبر منه في معنى القضاء، بل إن عبارة الحديث تكاد تنطق بأن ذلك اللحن كان أول لحن سمعه أفصح العربﷺ[٢] ونحن نقول بقوله إذا صح الحديث، لكن الرواية الأخرى لمقولة الرسولﷺ تشير إلى أنها كانت تنبيها لمن أخطأ في قراءة قرآنية: عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال: سمع النبي ﷺ رجلا قرأ فلحن، قال: «أرشدوا أخاكم[٣] وهذا ما تطمئن إليه النفس لما عرف عنهﷺ من الخلق العظيم.

ثم وردت أخبار اللحن تشير إلى وقوعه في عهد الخليفة عمر بن الخطابﷺ حيث ذكر أنه مر على قوم يتعلمون الرمي، فخطّأ بعض الرماة، فقالوا له: «إنا قوم متعلمين»، فأعرض مغضبا وقال: «والله

---

(٢) الخصائص : ٢٤٦/٣. مراتب النحويين: ٢٣، وهو في المستدرك على الصحيحين: ١٧٧/٢، بلفظ «أرشدوا أخاكم»

(٣) الرافعي في تاريخ آداب العرب: ٢٤٢/١.

(١) المستدرك:١٧٧/٢.

لخطؤكم في لسانكم أشد عليّ من خطئكم في رميكم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((رحم الله امرأً أصلح لسانه[١])) وورد أيضا أن واليه على البصرة: أبا موسى الأشعري، كتب إليه كتابا لحن فيه، فرد عمر الكتاب بعد أن وقع في أسفله: ((أقسم عليك إلا قنعت كاتبك سوط[٢]،

ثم انتشرت عدوى اللحن باتساع رقعة الفتح الإسلامي —في عهد عمر بن الخطاب والخلفاء بعده- حتى أصبحوا يعدّون من لا يلحن قال الأصمعي: ((أربعة لم يلحنوا في جدٍّ ولا هزل: الشعبي وعبدالملك بن مروان والحجاج بن يوسف وابن القرية، والحجاج أفصحهم[٣])).

وكان من جرّاء انتشار اللحن، وتسربه إلى السليقة اللغوية في مختلف طبقات المجتمع أن هبّ الغُيُر من أبناء العربية إلى اللغة ليحفظوها من وباء اللحن المستطير، فقامت حركة واسعة لجمع اللغة بدأت بالرواية وانتهت بالتدوين، تمخض عنها نتاج لغوي هائل استوعبته كتب اللغة، وعُنيت بدراسته دراسة معجمية وصوتية ونحوية وصرفية.. ونعرض — فيما يلي- لمظاهر هاتين الحركتين —الرواية والتدوين- وتأثّرها بالقرآن الكريم في نشأهما وتطورهما.

---

(٢) كتر العمال: ١٠/٢٥١، برواية البيهقي في شعب الإيمان، والدارقطني في الأفراد.

(٢) الخصائص: ٢/٨.

(٤) البيان والتبيين: ١/١٦٣، ٢/٢١٩.

المبحث الثاني: رواية اللغة

الرواية أصلها اللغوي: «الاستقاء والإتيان بالماء» يقال: رويت على أهلي، ولأهلي ريا: أي أتيتهم بالماء.. والرواية: «المزادة فيها الماء، والبعير لحمله المزادة[١]» ثم توسعت اللفظة -عن طريق المجاز- فدخلت ميدان النقل الشفوي.. «يقال: روى الحديث أو الشعر يرويه رواية بمعنى: حمله ونقله[٢]» والعلاقة بينهما: النقل في كلٍّ بطريقته المخصوصة غير أن الرواية لا بد فيها من الحفظ والاستظهار كما يفهم من قول الجوهري: «وتقول: أنشد القصيدة يا هذا، ولا تقل: اروها إلا أن تأمره بروايتها أي باستظهارها[٣] فالحمل والاستظهار -إذن- هما العنصران الأساسيان للرواية[٤].

(١) لسان العرب: (روى).

(٢) أساس البلاغة: (روى).

(٣) صحاح العربية: (روى)

(٤) مراتب النحويين: ٢٦. والبيان والتبيين: ٢/٢١٩.

الرواية في العصر الجاهلي:

وأول ما عرفت الرواية في العصر الجاهلي بلونها الأدبي الخالص، إذ لم يكن ثمة داع للرواية اللغوية؛ لأن العربي كان يطرب لسماع الشعر والتغني به، فيحفظه ويستظهره ثم يحمله ليسمعه الآخرين إشباعا لرغبتهم الفنية في الاستماع إلى الشعر والتغني به، أو ليبرز مآثر قبيلته ويفتخر بها، أو لينال من خصومه ويشهر بهم بإظهار مثالبهم.

لذلك احتل الشعر مكانة مرموقة بين القبائل، جعلت أبناء القبلية ينظرون إلى شاعرها نظرة تطلع واعتزاز.. فكان على من يشعر منهم بموهبة فنية في نظم الشعر أن يلازم شاعر القبيلة فيحفظ شعره ويرويه حتى يصقل بذلك موهبته متدرجا بها إلى بلوغ الشأن.. وقل أن تجد شاعرا نابغا لم يكن راوية، لقد كان «زهير بن أبي سلمى راوية أوس، والحطيئة راوية زهير، وأبوذئيب راوية ساعدة بن جؤية [1]» ولذا فإن الشاعر الراوية تتفتح قريحته عن شعر جيد مصقول بتجارب الشعراء الآخرين الذين سبقوه وروى شعرهم فتكون تلك مفخرة له. سئل رؤبة ابن الحجاج عن (الفحل) من الشعراء. قال: «هو الراوية[2]».

ولم تقتصر الرواية الأدبية على إرضاء الموهبة الفنية، أو الدربة على

---

(١) الوساطة: ١٦، (وذكر في المطبوع والد الشاعر الثالث محرفا هكذا جويرية).

(٢) العمدة: ١/٩.

إنشاء الشعر؛ لأن العصبية القبلية كانت توحي إلى الشعراء إذاعة مفاخر القبيلة على أوسع نطاق عن طريق الشعر الذي يسري بين القبائل سريان النار في الهشيم، ويؤثر في الأعداء تأثير السهام في الأجسام.. فكان الشعراء يترقبون أيام المواسم والمناسبات فيتوافدون إلى مكة وغيرها ليذيعوا أشعارهم في الأسواق التي تعقد لذلك في الجاهلية، ويأتي إليها رجال من مختلف القبائل للبيع والشراء وممارسة ألوان النشاط الفكري، فكانت هذه الأسواق الأدبية خير مكان يلتقون فيه، يجمع أبرز الشعراء، ويجري فيه التحكيم بإظهار جيد الشعر من رديئه، وبيان درجات الشعراء.

وكان «عكاظ [١]» من أشهرها، فتأتي إليه القبائل من أطراف الجزيرة وتنزل في أفنائه فترة من الزمن ثم تنتقل إلى سوق «ذي المجاز» أو «المجنة» وهكذا... فتحدث حركة أدبية عمادها هذا اللون من الرواية والتحمل فتسير أخباره وأشعاره مع الركبان في سائر أنحاء البلدان.

الرواية في العصر الإسلامي:

فلما جاء الإسلام أحدث تحولا هائلا في المجتمع الجاهلي إذ رفعه من حضيض ظلمات الجهل إلى قمة الإنسانية وعدالة التشريع الإلهي.. فكان التأثير واضحا على الرواية الأدبية نفسها، إذ تخلصت من الأنانية الممقوتة

(١) سوق بالقرب من مكة، سمي بذلك؛ لأن العرب تجتمع فيه فيعكظ بعضهم بعضا بالفخار: أي يدعكه. قاله الليث (العين: ١/٢٢٢) واللسان: مادة: عكظ.

والعصبية للقبلية إلى الذود عن حياض الإسلام وإبراز محاسنه والتصدّي لأعدائه وتسفيه آرائهم ومعتقداتهم، وظهر هذا الأثر قويا في قول الشعر نفسه ثم انعكس –بالطبع– على الغرض من روايته.

وحول القرآن بإعجازه الباهر ونظمه البديع أبرز الشعراء إلى وجهة أخرى تتفق مع الغرض السامي من أبداع الشعر، فكان حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبدالله بن رواحة وغيرهم من شعراء الإسلام لا يلتفتون إلى غير هذا الهدف السامي حين الإنشاء، وكذلك كان شأن الرواة عند التحمل والأداء.

وظل إلى جانب الشعر الإسلامي الشعر الجاهلي يروى على الألسنة لكنه قد تجرد عن الغرض الذي قيل من أجله، واعتبر فيه على الغالب الالتزام بالحدود الإسلامية والقواعد التي أقرها الدين الحنيف يفسر لنا ذلك ما علل به عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– وصفه زهير بن أبي سلمى بأنه «شاعر الشعراء».

يروى ابن عباس رضي الله عنه فيقول: «خرجت مع عمر في أول غزاة غزاها، فقال لي ذات ليلة: يا ابن عباس: أنشدني لشاعر الشعراء. قلت: من هو يا أمير المؤمنين؟ قال: ابن أبي سلمى قلت: وبم صار كذلك؟ قال: لأنه لا يتبع حوشي الكلام ولا يعاظل في المنطق، ولا يقول إلا ما يعرف، ولايمتدح الرجل إلا بما يكون فيه.. أليس الذي يقول: كذا وكذا؟

أنشدني! فأنشدته حتى برق الفجر[١]».

ثم انتقلت رواية الشعر نقلة هائلة لتدخل مع العلماء في مجالسهم وحلقات دروسهم، ليستعينوا بالشعر على فهم القرآن الكريم وشرح السنة النبوية فيما أشكل عليهم وغمض تفسيره لديهم.. وكان رائد هذه المدرسة الوليدة: الصحابي الجليل: عبدالله بن عباس رضي الله عنه الذي كثيرا ما يقول: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب[٢]». ولم يكن يلتفت إلى معارضيه في سلوك هذا المنهج بل يرى أنه الطريق الأمثل لتفسير القرآن الذي نزل بلسان عربي مبين؛ إذ الشعر الجاهلي في واقعه تسجيل حي للغة العرب بألفاظها ومعانيها[٣].

قال أبوالفرج الأصفهاني: «بينا ابن عباس في المسجد الحرام وعنده نافع بن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه، إذ أقبل عمر بن أبي ربيعة في ثوبين مصبوغين موردين أو ممصرين[٤] حتى دخل وجلس، فأقبل عليه ابن عباس فقال: أنشدنا، فأنشده:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر غداة غد أم رائح فمهجر

حتى أتى على آخرها.. فأقبل عليه نافع بن الأزرق فقال: ألله يابن

---

(١) العمدة: ١/٩٨، الأغاني: ١/٢٩٠.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١/١١٩، العمدة: ١/٣٠.

(٣) ينظر: ص/١٦٧.

(٤) الثياب الممصر: التي فيها شيء من صفرة ليست بالكثيرة (قاله أبوعبيد).

عباس! نضرب إليه أكباد الإبل من أقاصي البلاد فتتثاقل عنا، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيخزى وأما بالعشي فيخسر

فقال: ليس هكذا قال، قال: وكيف قال؟ فقال : قال:

رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر

فقال: ما أراك إلا قد حفظت البيت.

قال أجل، وإن شئت أن أنشدك القصيدة، أنشدتك إياها.

قال فإني أشاء – فأنشده حتى آخرها[1].

ولم يكن ابن عباس ﷺ يقيم للشعر وزنا، في حرم الله عزوجل، إلا لغرض سام يتكافأ وجلال الموقف وحرمة المكان. وكان مايقوم به ابن عباس ﷺ من تفسير ألفاظ القرآن والاستشهاد عليها بالشعر أول الدوافع لرواية اللغة، والاتجاه إلى الآثار الأدبية، والنظر إلى ما فيها من ألفاظ وتراكيب نظرة متأنية فاحصة.

---

(١) ينظر الأغاني: ٧٢/١، وخزانة الأدب:٤٢٠/٢، والقصيدة كما في ديوانه (١٠٢/ط ٢) أربعة وسبعين بيتا آخرها قوله:

فسافت وماعافت وما رد شربها عن الري مطروق من الماء أكدر.

ومعنى قوله: رأت رجلا- البيت: أي أنه يظهر للشمس ولا يستتر منها بكنٍّ في وقت النهار، كما يتعرض لآلام البرد ليلا.

وانظر: الجامع لأحكام القرآن: ٢٤/١، لمزيد من الأمثلة.

ثم جدّت في المجتمع العربي أمور جديدة انحرفت به عن مساره القديم وحملت الدوافع لرواية اللغة على أن تظهر شيئا فشيئا.. فكان وقوع اللحن في ألسنة العامة والخاصة -كما أشرنا- نذيرا صارخا يومئ إلى الاهتمام بأمر اللغة ألفاظا وتراكيب ومحاولة صيانتها من اللحن بوضع القواعد واستنباط الضوابط التي تحول دون الوقوع في الخطأ حرصا على سلامة اللغة وفصاحتها.. فعاد العلماء -مرة أخرى- إلى الشعر يلتمسونه لطلب الشاهد وتوضيح الغريب، وكان ذلك بداية الأخذ عن العرب للقصد العلمي.

وزادت عناية العلماء بأمر اللغة وروايتها عند ما قامت المجالس العلمية بالبصرة والكوفة، استجابة لامتداد الفتح الإسلامي، فأمها المسلمون من غير العرب ليقرأوا كتاب الله ويتعلموا مبادئ دينهم الجديد، ودعت الحاجة إلى معرفة مفردات العربية وتراكيبها والاستدلال على ذلك بالشعر العربي؛ فبرز الاهتمام بأمر اللغة وروايتها حتى أن الرواية التي كانت تطلب بالأمس كشيء جزئي في مجالس العلم، صارت تطلب لذاتها بعد أن ألحت دواعيها[1].

ولم تتخذ الرواية اللغوية شكلا واحدا تقف عنده على مدى ثلاثة قرون بل تعددت أشكالها وتنوعت صورها منذ ابتدائها في أواخر العصر

---

(١) رواية اللغة: ٦٨.

الأموي وحتى انتهائها في القرن الرابع الهجري[١] ونعرض لألوانها فيما يلي:

أ-رحلة العلماء إلى البادية:

استقر في أذهان العلماء أن أفضل وسيلة لاكتساب اللغة هو أخذها من منابعها الأصيلة بالتلقي عن فصحاء الأعراب والاختلاط بهم، فبدأت رحلة العلماء من (البصرة والكوفة وغيرهما) إلى البادية يطلبون الأعراب، ويقيمون بينهم الشهور بل الأعوام يستمعون إليهم ويروون عنهم ويسجلون كل ما يسمعون في صدورهم وألواحهم.

وكان أقدم من رحلوا إلى البادية: يونس بن حبيب الضبي (ت: ١٨٣هـ) وقد جاوز المائة فيما قيل، وخلف الأحمر (ت: ١٨٠هـ)، والخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ)، وأبوزيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ) رحل عن ٩٣ سنة من العمر، وهو أكثر أهل هذه الطبقة أخذا عن البادية[٢].

وقد جمع بعضهم بين التلقي عن العلماء والسماع من الأعراب حبا في توثيق العلم، ورغبة في الاستزادة منه.. ومن هؤلاء: علي بن حمزة الكسائي (ت: ١٨٩هـ) فإنه أخذ عن الخليل في البصرة ومعاذ الهراء في الكوفة، ثم خرج إلى بوادي الحجاز ونجد وتهامة ورجع وقد أنفد خمس

---

(٢) وهو نهاية عصور الاحتجاج بالنسبة للبادية، أما بالنسبة للحاضرة فنهايته القرن الثاني الهجري (انظر مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الجزء الأول، ص/٢٠٢)

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ١/٣٣١.

عشرة قنينة من الحبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ[١]، والنضر بن شميل (ت: ٢٠٤هـ) الذي أخذ عن الخليل بن أحمد وعن بعض الأعراب ثم رغب في الاستزادة فأقام بالبادية بعد ذلك أربعين سنة[٢]، ومثله أبوعمرو الشيباني (ت: ٢٠٦هـ) الذي لم يقنعه ما تعلمه في حلقات الدرس بالكوفة فخرج إلى البادية ومعه دستيجان حبرا، فما عاد حتى أفناهما كتابة لما يسمع من الأعراب[٣].

ولم يضع العلماء في أذهانهم قبيلة معينة يأخذون اللغة عنها، أو موطنا محدودا يقصدونه، بل كان هدفهم جمع اللغة النقية من أفواه الأعراب الخلص وتدوينها فكانوا يرحلون إلى البادية، يجوبون القفار، ويتتبعون مساقط الغيث ليسمعوا من الأعراب، لافرق بين الرجل أو المرأة الصغير أو الكبير، الخادم أو المخدوم[٤]، طالما أن السليقة العربية متأصلة في نفوسهم وجارية بها دماؤهم، ولكنهم مع ذلك رأوا أن سلامة اللغة ونقاءها يتطلبان منهم البعد عن أطراف الجزيرة وعدم الأخذ عمن شابت لغته شائبة، فلذلك حدّدوا قبائل معينة في وسط الجزيرة وأكثروا من الرواية عنها، وبالمقابل عينوا قبائل أخرى فلم يأخذوا عنها، يوضحهما

---

(١) معجم الأدباء:: ١٦٩/١٣.

(٢) تاريخ آداب العرب:(٣٣٢/٢).

(٣) إنباء الرواة: (٢٢٤/١)، والدستيج: آنية فارسية.

(٤) المزهر: ١٣٩/١، ١٤٠.

قول الفارابي[1]: «والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدى، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم (قيس وتميم وأسد)، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتكل في الغريب، وفي الإعراب والتصريف، ثم (هذيل، وبعض كنانة وبعض الطائيين) ولم يأخذوا عن غيرهم من سائر قبائلهم.

وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البوادي ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ من لخم ولا من جذام؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط، ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد؛ لأنهم كانوا مجاورين لأهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بغير العربية، ولا من تغلب ولا من النمر؛ لأنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ولا من بكر؛ لأنهم كانوا مجاورين للقبط والفرس، ولا من عبد القيس؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أزدعمان لمخالطتهم للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم».

---

(١) ينظر: المزهر: ١/٢١١، والاقتراح: ١٩.

وقول ابن خلدون ..«ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأصرحها، لبعدها عن بلاد العجم من جميع جهاتهم، ثم من اكتنفهم من ثقيف وهذيل وخزاعة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم، وأما من بعد عنهم من ربيعة ولخم وجذام وغسان وإياد وقضاعة وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة. فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخالطة الأعاجم(١).

ويتضح من هذا النقل أنه على قدر توغل القبيلة في البداوة تكون سلامتها من الفساد، وعلى قدر اقترابها من البيئة القرشية تكون فصاحتها في الأسلوب، والفصاحة غير السلامة في اللغة(٢).

ب- الأخذ عن فصحاء الأعراب:

في غضون الرحلة إلى البادية كانت هناك رحلة معاكسة يقوم بها الأعراب الفصحاء من مواطنهم في البادية إلى حواضر العلم وعلى رأسها البصرة والكوفة، لكن تردد الأعراب على «البصرة» كان أكثر، لو قوعها على حافة البادية وذلك لقضاء حاجاتهم وبيع سلعهم(٣).. فإذا ما جاءوا إلى الحاضرة تلقاهم طلاب العربية يستفتونهم فيما اختلفوا فيه، يسمعون منهم

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٤٩.

(٢) الفصاحة: خلوها من تنافر الحروف وحوشي الألفاظ والغرابة ومخالفة القياس اللغوي. والسلامة: صحة اللفظ لغويا ومطابقته للقواعد النحوية.

(٣) معجم البلدان: (٥/٩٨).

ويكتبون عنهم، ويلحون في طرح الأسئلة عليهم، يقول أبوزيد الأنصاري لأبي حاتم السجستاني: «قلت لأحدهم: ما المتكأكئ؟ قال: المتأزف. قلت: وما المتأزف؟ قال: المحبنطئ. قلت: وما المحبنطئ؟ قال: أنت أحمق ومضى[١]».

وينتهز اللغويون فرصة ورود الأعراب إلى سوقي «المربد والكناسة» على حافتي: البصرة والكوفة أثناء انعقادهما فيختلطون بهم ويروون عنهم الشيء الكثير، يحدثنا الأصمعي عن نفسه قال: «جئت إلى أبي عمرو بن العلاء. فقال: من أين جئت يا أصمعي؟ قلت: من «المربد». قال: هات ما معك، فقرأت عليه ما كتبت في ألواحي، ومرت به ستة أحرف لم يعرفها، فأخذ يعدو في الدرجة قائلا: شمرت في الغريب يا أصمعي[٢]..»

وبعد انقضاء حاجات الأعراب يعودون إلى البادية وتبقى طائفة منهم تسكن الأمصار وتقيم بها، فيأنسون إلى الرواة ويسكنون إلى مساءلتهم، ثم ينتهي الأمر بهم إلى أن يصيروا أساتذة في الفتيا ومرجعا في الخلاف، وهم لا يضيقون بذلك ولا يتبرمون منه، بل يتصدرون له ويفرحون به؛ لأنهم يخشون على ألسنتهم من طول المكث في الحاضرة[٣].

ولما كثر تردد الأعراب على الرواة ومذاكراتهم إياهم أقبل نفر منهم على الطلب والرواية عن العلماء، فبعد أن كان هؤلاء الأعراب يقصدون في أول

---

(١) نزهة الألباء: ١٢٦، والمعنى: الرجل القصير.

(٢) معجم البلدان: ٢/٢١٢.

(٣) تاريخ آداب العرب: ١/٣٣٣.

أمرهم، قصدوا هم مجالس العلم وحلقات الدراسة للتلقي عن العلماء والتلمذة لهم[١]، وأول من فعل ذلك: أبومسحل الأعرابي (ت:٢٣١هـ) الذي قدم من البادية وأخذ النحو عن الكسائي وصنف في النوادر والغريب[٢]، ثم توسعوا في الرواية وتكسبوا بها حتى عدوا من العلماء الذين يؤخذ عنهم، فروى: أبوعبيدة (ت:٢٠٩هـ) والأصمعي: (ت:٢١٤هـ) وأبوزيد: (ت: ٢١٥هـ) عن المنتجع بن نبهان، وابن أبي دأب، وأبي مهدية، وأبي منيع الكلابي، وأبي تؤابة الأسدي وكلهم من الأعراب[٣].

وصار لهم في حواضر العلم مكانة مرموقة منحتهم ثقة العلماء والحكام.. بل إن ما يقولونه يعتبر القول الفصل عند الخلاف ولا معقب عليه، ذلك أنه مهما جهدت بالأعرابي أن ينطق بغير لحن قومه لا يستطيع.. يقول الأصمعي: «جاء عيسى بن عمر الثقفي ونحن عند أبي عمرو بن العلاء فقال: يا أبا عمرو، ما شيء بلغني عنك تجيزه؟ قال: وما هو؟ قال بلغني أنك تجيز ليس الطيب إلا المسكُ (بالرفع). فقال: أبوعمرو: نِمْتَ وأدلج الناس، وليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب، وليس في الأرض تميمي إلا وهو يرفع. ثم قال أبوعمرو: قم يا يحيى (يعني: اليزيدي) وأنت يا خلف (يعني: خلفا

---

(١) الفهرست: ٦٥، وتاريخ آداب العرب: ١/٣٣٣.

(٢) الفهرست: ٦٥، المزهر: ٢/٣٥٥.

(٣) طبقات النحويين: ١٧٥، ومراتب النحويين: ٧٠، ١٣٩، ١٥٦.

الأحمر) فاذهبا إلى أبي المهدي[١] (أعرابي من الحجاز) فلقناه الرفع فإنه لا يرفع، واذهبا إلى أبي المنتجع (أعرابي من تميم) فلقناه النصب، فإنه لا ينصب.

قال: فذهبا فأتيا أبا المهدي فإذا هو يصلي، فلما قضى صلاته التفت إلينا وقال: ما خطبكما؟ قلنا جئناك نسألك عن شيء من كلام العرب. قال: هاتيا، فقلنا: كيف تقول: ليس الطيب إلا المسكُ (بالرفع)؟ فقال: أتأمراني بالكذب على كبر سني، فأين الجادي؟ وأين بُنَّة الإبل الصادرة؟ فقال له خلف الأحمر: ليس الشراب إلا العسل. قال: فما يصنع سودان هجر وما لهم شراب غير هذا التمر. قال اليزيدي: فلما رأيت ذلك منه قلت له: ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها. فقال: هذا كلام لا دخل فيه، ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله، فقال: اليزيدي: ليس ملاك الأمر إلا طاعة الله والعمل بها. فقال: ليس هذا لحني ولا لحن قومي. فكتبنا ما سمعنا منه. ثم أتينا المنتجع فأتينا رجلا يعقل فقال له خلف: ليس الطيب إلا المسكَ (بالنصب) فلقناه النصب وجهدنا فيه فلم ينصب وأبى إلا الرفع[٢]».

وزاد أمر التحكيم في مسائل الخلاف والمناظرات من شأنهم فأصبح الأمراء يستقدمون الفصحاء من البادية لتأديب أولادهم، ويأخذ عنهم علماء الأمصار ومن أشهر أولئك الأمراء: عبدالله بن طاهر؛ فإنه لما ولي

(١) في الفهرست: ٦٥ (أبومهدية) ولعله الأصح.

(٢) الأمالي: ٣/٣٩.

خراسان استقدم إليها جماعة من فصحاء الأعراب ذكروا منهم: أبا العميثل الأعرابي وعوسجة، فلما ورد أبوسعيد الضرير من بغداد على ابنه طاهر ابن عبدالله تأدب بهؤلاء الأعراب وأخذ عنهم(١).

وذكروا أن عدد الأعراب الفصحاء الذين روى اللغويون عنهم من الرجال والنساء نيف وتسعون راوية يرجع أغلبهم إلى قبائل: قيس وتميم ،أسد(٢).

جـ - الرواية عمن روى عن الأعراب:

ولما فسدت السلائق العربية ودخل ألسنة الأعراب اللحن لطول مقامهم في الحاضرة، وعيشهم في مجتمعها المختلط باللغات الوافدة، قلت الثقة بالأعراب وترك العلماء الأخذ عنهم، وأصبحت الرواية مقصورة على الأخذ عمّن أخذ عن الأعراب أنفسهم مشافهة أو بطريق الكتابة(٣).

ولا يخفى علينا ما يترتب على هذا النوع من الرواية من الوقوع بآفات الخطأ أو التصحيف أو التحريف التي لا زلنا نتجرع مرارها في المؤلفات المتأخرة حينما فقدت الرواية عنصر المشافهة والنقل المباشر.

أما أولئك التلاميذ الذين رووا عمن روى عن الأعراب فقد أصبحوا فيما بعد أساتذة الدرس اللغوي في (بغداد) كالمبرد (ت: ٢٨٥هـ) وثعلب (ت: ٢٩١هـ)

---

(١) تاريخ آداب العرب: ٣٩٩/١.

(٢) الفهرست: (٤٩-٧٦) تاريخ آداب العرب: ٣٤٠.

(٣) النهاية في غريب الحديث: (٥/١)، وقد كثر اللحن بعد القرن الثالث الهجري.

وأقرانهما، على أنه قد سنحت لهم الفرصة المشافهة لبعض الأعراب ممن لم تفسد سلائقهم في حاضرة العلم (بغداد)؛ كأبي مسحل عبدالله أو عبدالوهاب بن خريش[١]، ويزيد بن عبدالله المعروف بأبي زياد الكلابي، ومحمد بن عبدالملك الفقعسي: راوية بني أسد، وأبي ثروان العكلي وغيرهم[٢].

على أننا نستطيع القول بأن الرواية في (بغداد) –على قلتها– قد أخذت وجها حضريا متميزا اختفت معه معالم الوجه البدوي الذي كان بمثابة سمة من سمات التوثيق؛ ولذلك لم يعتد به أكثر العلماء واكتفى الناس –حينئذ– بآثار أسلافهم التي حوتها بطون الكتب.

---

(١) سماه السيوطي في (البغية: ٤٢/٢) عبدالله. وسماه الزبيدي في الطبقات (١٤٨) عبدالوهاب.

(٢) معجم الأدباء: (١٨٩/١٨)، الفهرست: (٦٩،٧٣)، مراتب النحويين: ١٣٩.

المبحث الثالث: تدوين اللغة

تمخضت تلك الحركة الواسعة في الرواية من تقييد العلماء لألفاظ اللغة في قلوبهم وألواحهم تقييدا غير مرتب –في غالب الأحيان– إلا ترتيب سماعه وأخذه من الأعراب، معززا بذكر الشواهد الشعرية والأمثال العربية.. وكانت لبعضهم عناية فائقة في الجمع والتدوين حتى غلبت «اللغة» عليه، فأصبح مرجعا للناس في علوم العربية وإماما في الرواية.. ومن أولئك:

١- قتادة بن دعامة السدوسي (ت:١١٧) أكمه من أهل البصرة. قيل عنه: «لم يأتنا من علم العرب شيء أصح مما أتانا به قتادة.. ولم يكن يمر يوم لا تأتيه راحلة من بني أمية تنيخ ببابه تسأل عن خبر أو نسب أو شعر[١]».

٢- وأبوعمرو بن العلاء (١٥٤هـ). كان من أعلم الناس بالعربية وأيام العرب، وكانت دفاتره تصل إلى السقف، لكنه تنسك فأحرقها، وشغف بالرواية وجمع علوم العربية وأشعارهم، حتى قال: «ما انتهى إليكم مما قال العرب إلا أقله[٢]».

٣- وأبوعبيدة معمر بن المثنى (٢٠٩هـ) الذي اجتمع له من علم الرواية ما جعله يقول عن نفسه: «ما التقى فرسان في جاهلية أو إسلام إلا

---

(١) وفيات الأعيان: (٨٥/٤)، المزهر: (٣٣٤/٢).

(٢) وفيات الأعيان: (١٣٦/٣) ط: مكتبة النهضة لنقص بعض الأعلام في الطبعة المحققة، طبقات الأدباء: (٣٣).

عرفتهما وعرفت فارسيهما[١]».

٤- وعبدالملك بن قريب الأصمعي (ت:٢١٤هـ): كان من أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر وأحضرهم له حافظة[٢].. فكان يحفظ أكثر من اثني عشر ألف أرجوزة، ويقال إنه إذا قيل انتقل حمل كتبه في ثمانية عشر صندوقا[٣]».

٥- وأبوزيد سعيد بن أوس الأنصاري (٢١٥هـ) كان من أحفظ الناس للغة، وأوسعهم رواية وأكثرهم أخذا عن البادية.. قال ابن مناذر: «كان الأصمعي يجيب في ثلث اللغة، وكان أبوعبيدة يجيب في نصفها، وكان أبوزيد يجيب في ثلثيها، وكان أبومالك يجيب فيها كلها[٤]». ولم يبلغ أولئك العلماء هذه المترلة الرفيعة في علم اللغة وأيام العرب إلا بعد كدٍّ ونصب، وركوب للصعاب، وتحمل للمشاق في سبيل جمع اللغة وحفظها فلا غرابة إذاً، لما تحدثنا عنه الروايات من إقامة هؤلاء وغيرهم بين أهل البادية شهورا بل أعواما يسمعون منهم، ويتلقون عنهم المفردات والتراكيب، ويقفون على سنن العرب، ومجاري كلامهم في الشعر والنثر ثم يحفظون ذلك في صدورهم أو يدونونه في ألواحهم، حتى إذا أدرك العالم ما به تقنع نفسه عاد إلى مسقط

---

(١) المزهر: (٢/٤٠٢) .

(٢) نفسه: (٢/٤٠٢) بتصرف.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية.

(٤) المزهر: (٢/٤٠٢)، وعلل السيوطي قلة رواية الأصمعي لما عرف عنه من شدة التحري في الرواية والحرج في غريب القرآن والحديث.

رأسه ليمليه ويعلمه، وكانت تلك أولى مراحل جمع اللغة وتدوينها ثم تلتها خطوات توجّت بظهور الكتب اللغوية الشاملة[١].

ولم تكن الكتب اللغوية الشاملة أول ما عرف من التأليف اللغوي، بل سبقتها محاولات طبيعية دعت إليها الحاجة ثم تدرج الأمر على مراحل حتى انتهى بتأليف المعجم الشامل.. ويرى بعض الباحثين[٢] أن جمع اللغة قد تم على ثلاث مراحل – ومن المؤكد أنها جاءت جميعا بعد الإسلام؛ إذ لم يعرف العصر الجاهلي سبيلا للجمع، وهو ما يؤكد التأثير القرآني في سلوك هذا الاتجاه العلمي:

أ- المرحلة الأولى:

جمع الكلمات من البادية وتدوينها كيفما اتفق، دون نظر لترتيبها أو وجود تناسب بينها عند التدوين، فالعالم حينما يرحل إلى البادية يسمع كلمة في المطر وأخرى في السيف وثالثة في الزرع أو النبات ورابعة في وصف الإنسان أو الحيوان.. إلى غير ذلك، فيدون ذلك كله حسبما سمع من غير ترتيب إلا ترتيب السماع.

ب- المرحلة الثانية:

جمع اللغة المتعلقة بموضوع واحد في موضع واحد، دون ترتيب للموضوعات في داخلها، ودعاهم إلى ذلك وجود كلمات متقاربة

---

(١) المزهر: ٤٠٣/٢ وما بعدها بتصرف.

(٢) الأستاذ أحمد أمين في ضحى الإسلام: ٢٦٣/٢- ٢٦٥.

في المعاني –كالشخير والنخير والكرير من أصوات الخيل(١) والقضم والخضم(٢) للقطع بالأسنان– فأرادوا تحديدها بوضعها في موضع واحد، وقد تدرجت هذه المرحلة –في نفسها– حتى انتهت بتأليف كتاب أو كتب مستقلة في موضوع واحد، مثل كتاب النبات، وكتاب خلق الإنسان، وغيرها.

جـ المرحلة الثالثة:

وضع كتاب شامل لجميع الكلمات العربية يسهل بواسطته معرفة معنى أية كلمة عربية أو معرفة اللفظ العربي لأي معنى في الذهن.. وقد اصطلح على تسميتها من بعد بكتب «المعجم».

وأذهب إلى ما ذهب إليه الأستاذ: أحمد أمين من أن التسلسل في مراحل التدوين معقول وصحيح، لأن التدرج الطبيعي لنضوج العلم وبلوغه مرحلة التأليف، أن يسبقه ما يمهد له.

قال رحمه الله(٣): «... وكانت كل مرحلة من هذه المراحل تسلم إلى ما بعدها، ولا يعكر على هذه الفكرة، إلا أن الخليل واضع الفكرة الثالثة كان أسبق زمنا من أبي زيد والأصمعي واضعي الفكرة الثانية،

---

(١) الشخير: صوت الفرس من فمه، والنخير صوته من منخريه، والكرير : صوته من صدره.. قاله الأصمعي (المخصص : ٢/١٤٢).

(٢) القضم: قطع الفرس بأسنانها، والخضم: قطع الإنسان بأسنانه. قاله أبوعبيد (المخصص: ٥/٢٧).

(٣) ضحى الإسلام: (٢/٢٧٠).

ولكن نجيب عن هذا: بأن الثلاثة تعاصروا زمنا طويلا، فالخليل عاش من (١٠٠-١٧٥هـ) والأصمعي من (١٢٢-٢١٣هـ) وأبو زيد (توفي سنة ٢١٥هـ) عن بضعة وتسعين عاما.. فقد عاشوا زمنا طويلا، وربما سبق الأصمعي وأبو زيد بالتأليف في المفردات، وأن الخليل على ما عليه أكثر المحققين وضع الفكرة فقط، ولم يستطع أن يملأها وينفذها من قاربه في الزمن مثل الأصمعي وأبو زيد؛ لأن فكرة الخليل كانت طفرة في التفكير وقبل زمانها، فلم يستطع أن يملأها وينفذها إلا من أتى بعده وبعد الأصمعي وأبي زيد.. لهذا لا تزال فكرة التسلسل معقولة صحيحة».

ولكني أضيف إلى قوله ما أوردته كتب التراجم[١]، من أن كلا من: أبي خيرة نهشل بن زيد الأعرابي (أستاذ أبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة ١٥٤هـ) وأبي مالك بن عمرو كركرة الأعرابي (أستاذ الخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥هـ) قد ألفا في «الحشرات» و«الخيل وخلق الإنسان».

وهؤلاء -لا شك- أسبق زمنا من الخليل، بل ربما شاركهم التأليف آخرون، أو سبقوهم إليه ولكن لم تصل إلينا أخبارهم..

وعلى هذا تكون فكرة التسلسل صحيحة نظريا لا عمليا[٢]؛ لأن الدراسات اللغوية تقر بوجود المرحلتين الثانية والثالثة، وتختلف في المرحلة الأولى فتبين أن الرسائل فيها مختلطة، وقد وجدت فيها رسائل مستقلة

---

(١) الفهرست: (٦٦، ٦٨).

(٢) د. حسين نصار في المعجم العربي: (١/٣٥).

بألفاظ القرآن والحديث، مع ما كان يمليه أكثر اللغويين على تلاميذهم أو يقيدونه من الأعراب في دفاترهم بلا نظام معين.

كما أن فكرة التسلسل في تعاقب هذه المراحل لا تعني تميز كل مرحلة عما عداها، وانقضاءها بظهور تاليتها، بل على العكس من ذلك فقد استفادت كل مرحلة من سابقتها وبقي لهذه المرحلة أتباع يفضلون منهجها حتى أزمان متأخرة، ونضرب لذلك مثلا بالمرحلة الثانية، فقد توالى التأليف فيها طيلة القرون الثلاثة التي ندرسها إلى جانب المعجم الكامل..

فألف في الحشرات[١] بعد أبي خيرة الأعرابي –كتابا مستقلا كل من: أبي عمرو الشيباني (٢٠٦هـ) وأبي عبيدة (٢٠٩هـ) والأصمعي (٢١٣هـ) وابن الأعرابي (٢٣١هـ) وأبي نصر أحمد بن حاتم (٢٣١هـ) وابن السكيت (٢٤٤هـ) وأبي حاتم السجستاني (٢٥٥هـ) وآخرون ممن لم تصل إلينا مؤلفاتهم.

وألف في الخيل بعد أبي مالك عمرو بن كركرة كل من: أبي المنذر هشام بن محمد الكلبي (٢٠٤هـ) والنضر بن شميل (٢٠٤هـ) وأبي عمرو الشيباني (٢٠٦هـ) وقطرب (٢٠٦هـ) وأبي عبيدة (٢٠٩هـ) والأصمعي (٢١٣هـ) وعلى بن عبيدة الريحاني (٢١٩هـ)، والمدائني (٢٢٥هـ) ومحمد بن عبدالله العتبي (٢٢٨هـ) وابن الأعرابي (٢٣١هـ) وأبي نصر أحمد بن حاتم (٢٣١هـ) وعمرو بن أبي عمرو الشيباني (٢٣١هـ) والتوزّي (٢٣٣هـ)

---

(١) المعجم العربي: (١٢٤/١).

ومحمد بن حبيب (٢٤٥هـ) وأبي محلم الشيباني (٢٤٥هـ) وأبي عكرمة عامربن عمران الضبي (٢٥٠هـ) وأبي الفضل العباس بن الفرج الرياشي (٢٥٧هـ) وابن قتيبة (٢٧٦هـ) وأحمد بن أبي طاهر (٢٨٠هـ) وغيرهم، وفقدت جميعا ما عدا: أنساب الخيل للكلبي، والخيل لأبي عبيدة، والخيل للأصمعي، وأسماء الخيل وفرسانها لابن الأعرابي(١).

وألف في الإبل تأليفا مفردا كل من(٢): أبي عمرو الشيباني (٢٠٦هـ) وأبي عبيدة (٢٠٩هـ) والأصمعي (٢١٣هـ)، وأبي زيد الكلابي (٢١٥هـ)، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥هـ)، وأبي نصر أحمد بن حاتم (٢٣١هـ)، وابن السكيت (٢٤٤هـ) وأبي حاتم السجستاني (٢٥٥هـ).. وفقدت جميعا ما عدا كتاب «الإبل» للأصمعي.

وامتد هذا النوع من هذا التأليف إلى ما بعد القرن الثالث، ويرى بعض العلماء أنه توقف في منتصف القرن الرابع على يد أبي على القالي (٣٥٦هـ)(٣).

كما يرى أنه في أوائل القرن الثالث تشكل بلون جديد، فأضاف مرحلة أخرى: هي جمع عدة كتب من المؤلفات السابقة في كتاب واحد(٤)، وكان أول من فعل ذلك أبوعبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) في

---

(١) المعجم العربي: (١٢٧/١).

(٢) الحيوان (مقدمة المحقق: ١٤/١)

(٣) د/قناوي في المعاجم (مذكرتي): ١٤.

(١) نفسه: (١٣-١٤).

الغريب المصنف تلاه ابن السكيت (٢٤٤هـ) في كتابه «الألفاظ».. واستمر هذا المنهج حتى عصرنا الحاضر.

على حين يرى غيره[1] أنهما منهج واحد –ولكن في صورتين مختلفين– ويسمى هذا اللون من المؤلفات «بكتب الصفات»، أو «الغريب المصنف» كما أطلق عليه مصنفوه.

ويرى أن أول من أثر عنه ذلك أبو خيرة الأعرابي في كتاب نعته «بالغريب المصنف» ثم أعقبه القاسم بن معن الكوفي (معاصر للخليل)، وتابعه بعد ذلك: النضر بن شميل (٢٠٣هـ)، وأبو عمرو الشيباني (٢٠٦هـ)، وقطرب (٢٠٦هـ)، والأصمعي: (٢١٣هـ) وأبو زيد الأنصاري (٢١٥هـ) ثم أبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) وابن السكيت (٢٤٤هـ).

ويرى آخرون أنه نوع من المعاجم الشاملة يختص بالمعاني، وهو قسيم معجمات الألفاظ وهذا ما نختاره، وقبل أن نتحدث عن هذين النوعين وأبرز كتبهما، نمهد لذلك بتوضيح معنى كلمة «المعجم» وأولية ظهوره واستخدامه.

معنى لفظة (المعجم):

جاءت مادة (ع ج م) في اللغة بمعنى : الإبهام والخفاء وعدم البيان ففي «العين»: «الأعجم الذي لا يفصح.. والعجماء: كل دابة أو بهيمة والأعجم كل

---

(١) د.حسين نصار في المعجم العربي: (٢٠٦/١) وما بعدها.

كلام ليس بعربي... و استعجمت الدار عن جواب السائل: سكتت[١]».

وفي اللسان: «رجل أعجمي وأعجم: إذا كان في لسانه عجمة... وسميت البهيمة عجماء: لأنها لا تتكلم[٢]..».

فإذا ما أدخلنا الهمزة على الفعل أو ضعفنا عينه تحول المعنى إلى الضد تماما، واستفاد من الهمزة والتضعيف معنى السلب والنفي مثل: أشكى وأقسط وأقذى[٣] و«تعجيم الكتاب: تنقيطه كي تستبين عجمته ويضح[٤]»، والإعجام: الإيضاح بالنقط، يقال أعجمت الحرف وعجمته تعجيما، ولا يقال: عجمه، ومنه حروف المعجم «وهي الحروف المقطعة التي يختص أكثرها بالنقط من بين سائر حروف الاسم، ومعناه: حروف الخط المعجم[٥]».

ويذهب ابن فارس في تسميتها مذهبا آخر حيث يقول: «وأظن أن الخليل أراد بالأعجمية أنها مادامت مقطعة غير مؤلفة تأليف الكلام المفهوم فهي أعجمية؛ لأنها لا تدل على شيء[٦]»، لذلك أطلق على الكتاب الذي يجمع

---

(١) العين: (ع ج م).

(٢) اللسان: (ع ج م).

(٣) الخصائص: (٣/٧٥)، المزهر (١/٢٣٠).

(٤) الخصائص: (ع ج م).. وورد في الكتاب المطبوع (ج١/٢٧٤) «ويصح» ولعلها مصحفة عما أثبته.. وهكذا أوردها ابن فارس في (المقاييس: ٤/٢٤٠).

(٥) الصحاح: (ع ج م).

(٦) مقاييس اللغة: (ع ج م).

كلمات اللغة ويشرحها وبوضوح معناها في ترتيب معين لفظ «معجم»؛ وذلك لأنه يزيل ما في المادة من غموض وإبهام، ولأنه مرتب على حروف المعجم. فلفظ «معجم» –إذاً– إما اسم مفعول من الفعل «أعجم» أو أنه مصدر ميمي بمعنى الإعجام.. قال الجوهري: «وناس يجعلون المعجم بمعنى الإعجام مصدرا –مثل المخرج والمدخل– أي من شأن هذه الحروف أن تعجم[(١)]».

وقد مرت كلمة «معجم» بمراحل قبل أن تستقر مصطلحا على كتب اللغة المعروفة وأول ما استخدمت في عنوان كتاب حبيش بن موسى الضبي (الأغاني على حروف المعجم[(٢)]) للإشارة إلى أن مادة الكتاب مرتبة على الحروف الهجائية ثم تخفف الناس من هذه الإضافة، واكتفوا بكلمة «معجم» للدلالة على الترتيب الهجائي للمادة.. واشتهر ذلك –مصطلحا– على يد رجال الحديث.. فكان البخاري (٢٥٧هـ) أول من أطلق كلمة (معجم) على أحد كتبه، وسماه «الجامع على حروف المعجم» على غرار كتابه «التاريخ الكبير» الذي رتب فيه أسماء الرجال وفق حروف المعجم[(٣)].

---

(١) الصحاح: (ع ج م) وهو ما ذهب إليه المبرد وابن جني وقال ابن بري: إنه أصوب وأسد، أما القول الأول فمال إليه ابن فارس (في المقاييس) وعليه فلا تصح الإضافة إلا بتقدير مضاف تقديره (حروف الخط المعجم).

(٢) معجم الأدباء: (٧/٢٢٠).

(٣) تاريخ بغداد: (٤/٤). ومقدمة الصحاح: (٣٨).

ثم تتابع المحدّثون في إطلاقه على مؤلفاهم قبل أن يستخدمه اللغويون. فنجد العناوين التالية: ((معجم الصحابة)) لأبي يعلى أحمد بن علي بن مثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي الموصلي الحافظ محدث الجزيرة (ت: ٣٠٧هـ)، و(المعجم الكبير) و(المعجم الصغير) في أسماء الصحابة لأبي القاسم عبدالله بن محمد بن العزيز البغوي المحدث المعروف بابن بنت منيع (ت: ٣١٥هـ)، والمعجم (الكبير) و(الأوسط) و(الصغير) في قرءات القرآن وأسمائه: لأبي بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلي (ت: ٣٥١هـ) و(معجم الشيوخ) لأبي الحسين عبدالباقي بن قنع بن مرزوق البغدادي (ت: ٣٥١هـ)، والمعجم (الكبير) و(الأوسط) و(الصغير) لأبي القاسم بن أحمد الطبراني (ت: ٣٦٠هـ) ومعجم (الشيوخ) لأبي بكر أحمد ابن إبراهيم الإسماعيلي (ت: ٣٧١هـ).. وغير هؤلاء كثير[1] وهم يتفقون جميعا مع إطلاق البخاري لكتابه، وترتيبه الأسماء على حروف المعجم، ولم يغب عن اللغويين هذا المصطلح قبل أن يستعمله المحدثون؛ لأنهم أصحاب فكرته، لكنهم لم يطلقوه عنوانا على مؤلفاهم، إنما كانوا ينعتون ((المعجم)) بصفة مميزة تغلب عليه، فابن دريد (ت:٣٢١هـ) يسمى معجمه ((جمهرةاللغة))، وأبوعلي القالي (٣٥٦هـ) ((البارع في اللغة))، والأزهري

---

(١) فهرست ابن خير: (٢١٥)، ومقدمة الصحاح: (٣٨/٣٩)، المعجم العربي: (١٣/١-١٤)، المعاجم العربية: (١٦).

(٣٧٠هـ) «تهذيب اللغة» والصاحب بن عباد(٣٥٠هـ) «المحيط في اللغة»، وابن فارس (٣٩٥هـ) مجمل اللغة، والجوهري (٣٩٨هـ) تاج «اللغة وصحاح العربية»... وهذه طائفة من كتب المعاجم المشهورة في القرن الرابع الهجري و لم نجد إطلاق (المعجم) على أي منها عنوانا كما فعل المحدثون المعاصرون لهم، وكثر ذلك منهم، على أن هذا المصطلح كان متداولا بين رجال اللغة من قبل، دون إطلاقه على كتبهم اللغوية[١].

أما إطلاق (القاموس) على المعجم فهو إطلاق متأخر، جاء بسبب شهرة وذيوع كتاب (القاموس المحيط) للفيروزآبادي (٨١٦هـ)، وتردد اسم هذا الكتاب كثيرا على ألسنة الباحثين حتى ظن أن كلمة (القاموس) ترادف (معجم) وظل هذا المعنى سائرا حتى أجازه مجمع اللغة العربية بالقاهرة وذكره ضمن معاني كلمة (قاموس) في «المعجم الوسيط» معتبرا إطلاق هذا اللفظ على معجم من قبل المجاز أو التوسع في الاستخدام[٢].

---

(١) المعجم العربي في الماضي والحاضر: ٣٠وما بعدها.

(٢) المعجم العربي: (١٤/١)، والبحث اللغوي: (١٢٠)، المعجم الوسيط: (٤٦٧/٢) «ق م س».

أنواع المعاجم:

للمعاجم أنواع كثيرة: لغوية وغير لغوية، ونقصر كلامنا على المعاجم اللغوية وهي نوعان:

الأول: معاجم المعاني:

وهي التي تشتمل على العديد من الموضوعات اللغوية، غير المرتبة ترتيبا مقصودا.

وتسمى المعاجم المبوبة[١]، والمعاجم ذات الموضوعات، ومن أشهرها الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ)[٢]، والألفاظ لابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ).

ونتحدث عن الثاني فيما يلي:

---

(١) المخصص: (١/١٠).

(٢) طبع -مؤخرا- بتحقيق د. محمد المختار العبيدي، ونشره المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون (ط٢ ١٤١٦هـ).

كتاب الألفاظ

مؤلفه:

ألفه أبويوسف يعقوب بن السكيت (ت:٢٤٤هـ) لبيان وجوه الاستعمال في المفردات والعبارات، وغير مكتف بمهمة الجمع أو تفسير اللفظة بلفظة أخرى والاحتجاج لها كما كان يعمل غيره من قبله، إذ كان الرواة في القرن الثاني يجمعون المفردات التي تقع تحت أصل واحد في كتيبات صغيرة كخلق الإنسان، والنبات والشجر، والخيل والإبل.

روايته:

رواه ابن السكيت عن علماء البصرة والكوفة، فمن علماء البصرة الذين ذكرهم في الكتاب: أبوعمروبن العلاء (ت: ١٥٤هـ) ويونس بن حبيب (ت: ٢٨٧هـ) وأبوعبيدة (٢١٠هـ) والأصمعي (ت٢١٣هـ)[(١)].

ومن علماء الكوفة: الكسائي (ت: ١٨٩هـ) والفراء (ت: ٢٠٧هـ)، وابن الأعرابي (٢٣١هـ) وأبوعمرو الشيباني (ت: ٢٠٦هـ)[(٢)].

وكان وثيق الصلة بأبي عمرو الشيباني، ويشير إلى هذه الصلة بقوله«...آخذ عنه، وأكتب من كتبه[(٣)]» ويكتفي بكلمة (أبي عمرو) في

---

(١) تهذيب الألفاظ: ١، ٢، ٣، ٥، ١٣، ٦٧٣.

(٢) تهذيب الألفاظ: ٥، ٩، ١٣، ٦٨، ٦٧٢.

(٣) الفهرست: ١٠٢.

كثير من الأماكن قاصدا بها أباعمرو الشيباني.

وكان يروي عن أعراب بني قشير، وعن بني أسد. وينسب أقوالا إلى أعراب رواة، كأفار بن لقيط الذي روى عنه الجاحظ، وروى عن ثعلب والمبرد عن (مكوزة) وهو أبوالعمر العلاء بن بكر بن عبد رب بن مسحل[١].

تحليله:

جمع ابن السكيت بعض ألفاظ العربية، وبوبها على موضوعات شتى، زادت على مائة وخمسين بابا، ومنها أبواب في صفات الناس وأخرى في صفات الأشياء، وأبواب للعبارات المختلفة.

- فمن صفات الناس: حديثه عن الغنى والفقر، وما يكره من خلق الإنسان، وما ينعت به النساء في الولادة، يقول في باب الفقر:

«يقال أقفر الرجل إقفارا إذا بات في القفر فلم يأو إلى مترل ولم يكن معه زاد، الأصمعي، يقال: بات فلان القواء، يريد بات في القفر[٢]».

ومن صفات الأشياء: حديثه عن الآنية للخمر وغيرها، وصفة الشمس، وصفة الليل وأسماء الطريق... يقول في صفة الليل: «الظلام أول الليل وإن كان مقمرا، وأتيته ظلاما أي ليلا... ويقال: أتيته أول الليل، وهو من غيوب الشمس إلى العتمة، وأتيته ظلاما، أي عند غيوبة الشمس

---

(١) تهذيب الألفاظ:٦٤، ٦٥، ٥٣٢، ٦٤٥.

(٢) تهذيب الألفاظ: ٢١.

إلى صلاة المغرب وهو دخول أول الليل، وأتيته ممسيا: إذا أتيته بعد العصر إلى غيوب الشمس[١]».

ومن أبواب العبارات المختلفة: باب مالا بد منه، وباب النفي في الطعام، وباب قولك ما بها أحد، وباب أخذ الشيء بأجمعه، وباب ما يقال في القلة... ويقول: «ماله سعتة ولا معنة، ماله مال قليل ولا كثير، قال أبوعمرو: سعتة للقليل ومعنة للقليل والكثير، قال النمر بن تولب:

ولا ضيّعته فألام فيه فإن ضياع مالك غيرمعن

ويقال: ماله سبد ولا لبد في معناه، فالسبد كل ذي شعر، ويقال: قد سبد الشعر بعد الحلق: إذا خرج. وقد سبد ريش الفرخ: إذا خرج ولم يطل. واللبد كل ذي صوف ووبر، وماله قد ولا قحف، فالقد: إناء من جلود. والقحف: إناء من خشب، وماله زرع ولا ضرع، وماله دقيقة ولا جليلة أي شاة ولا ناقة[٢]..».

وعمل بابا بناه على أفعل التفضيل. يقول فيه الأصمعي: «يقال: أغلظ المواطئ الحصا على الصفا. وأشد الرجال الأعجف الضخم، ويقول أضخم الألواح كثير العصب... وأسرع الأرانب أرنب الخلة، وذلك أن الخلة تطويها ولا تفتقها والحمض يفتقها. وأسرع الظباء تيس الحلّب[٣]».

---

(١) تهذيب الألفاظ: (٤٠٥).

(٢) تهذيب الألفاظ: (٤٨٩).

(٣) تهذيب الألفاظ: (٥٥٦). والحلّب: نبت.

ثم يبين الفروق أحيانا بين ألفاظ مختلفة، وقد تتغير صورة اللفظ فيتغير معناه فيقول مبينا ذلك: «طحنت أطحن طحنا، والطحن (بالكسر) الدقيق نفسه: والطحن (بالفتح) فعلك. ومثله الذَّبح والذِّبح، فالذبح (بالكسر) الكبش بعينه، والذبح (بالفتح) فعلك[١]...».

وحين يذكر أختلاف العلماء في إطلاق الأسماء على بعض الأشياء يوضحه كقوله في صفة الخمر: هي الخمر الشمول والقرقف والعقار...وفي الشمول يقول: «قال الأصمعي: سميت شمولا؛ لأن لها عصفة كعصفة الريح الشمال، وقال أبوعمرو: سميت شمولا؛ لأنها شملت القوم بريحها أي عمتهم، يقال شملهم الأمر يشملهم إذا عمهم[٢]..».

فإذا كانت اللفظة معربة ذكر أصلها كقوله في باب الطيالسة والأكيسة «المستقة جبة فراء طويلة الكمين، وأصلها بالفارسية مثتة. قال ثعلب: هي المستقة على وزن بندقة[٣]».

وكان ابن السكيت كوفيا، ولكنه لم يتحيز للكوفة في رواية كتابه، فقد كان يروي فيه عن علماء البصرة والكوفة على السواء، فإذا اختلفتا الروايتان في شيء وازن بين الرويتين عن طريق الجمع بينهما، من ذلك ما يرويه في كلمة (المفرج) حيث يقول: قال أبوعبيد: جاء في الحديث «لا يترك في الإسلام

---

(١) نفسه: (١٢٧).

(٢) تهذيب الألفاظ: (٢١٢).

(٣) نفسه: (٦٧٠).

مفرج». والمفرج المغلوب المحتاج، أي لا يترك أخلاق المسلمين حتى يوسع عليه، يم يردف بقول ثعلب: المفرح -بالحاء غير معجمة- الفقير المحتاج، وبالجيم - الذي لا عشيرة له[١].

قيمته:

ويعد «كتاب الألفاظ» خطوة جديدة من خطوات الجمع والتأليف اللغوي في القرن الثالث الهجري.

وهو مطبوع في بيروت سنة١٨٩٥م، طبعه لأول مرة الأب لويس شيخو اليسوعي (ت: ١٩٢٧م) عن نسخة قديمة كتبت في سنة:٤٠٩ للهجرة في دار السلام، على يد هبة الله بن محمد الفارسي، وهي موجودة في خزانة كتب «ليدن» بهولندة.

لكن الكتاب لم يصل إلينا كما وضعه مؤلفه، بل الذي وصل تهذيب الشيخ أبي زكرياء يحيى بن على الخطيب التبريزي (ت: ٥٠٢هـ) له، ولذلك عرف بين الباحثين بكتاب (تهذيب الألفاظ) .. وقد أحسن الناسخ والناشر صنعا إذ حافظا -قدر الإمكان- على نص كتاب «الألفاظ» بوضعه في أعلى الصحيفة مفصولة بينه وبين تهذيب الخطيب بجدول، فتميز عنه وأصبح التهذيب كالحاشية له[٢].

---

(١) تهذيب الألفاظ: (٢٤).

(٢) ثم وصل الكتاب مطبوعا -بتحقيق فخرالدين قباوة.

الثاني: معاجم الألفاظ:

وهي التي تشتمل على مواد اللغة مرتبة ترتيبا خاصا، وتسمى بالمعاجم المجنسة، على حد تعبير ابن سيده[١].

ويعد هذا النوع من المعاجم غاية ما توصل إليه الفكر العربي لجمع لغته وتدوينها، بطريقة مرتبة ونظام مبتكر، وكان رائد هذا الفن والسابق إليه: الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ) في كتاب «العين»، وعاصره في الفترة نفسها أبوعمرو الشيباني (ت:٢٠٦هـ) فألف معجمه «الجيم» أواللغات أو الحروف[٢] على منهج فريد خالف فيه ترتيب الخليل الصوتي، فعمد إلى الترتيب الهجائي المألوف لسهولته ولم يجد عنه إلا بتقديم باب الواو على الهاء، وقد طبعه مجمع اللغة العربية بالقاهرة محققا ومرتبا على الهجائية العادية، بادئا بحرف الهمزة لا حرف الجيم[٣].

ثم جاء من بعدهما: أبوبشير البندنيجي (ت:٢٨٤هـ) فوضع معجمه «التقفية في اللغة»، ورتبه وفق الترتيب الهجائي العادي ولكن بحسب الحرف الأخير[٤].

---

(١) المخصص: (١/١٠).

(٢) مقدمة كتاب الجيم: (١/٢٧).

(٣) الجزء الأول بتحقيق: إبراهيم الأبياري عام١٩٧٤م، والثاني بتحقيق عبدالعليم الطحاوي عام١٩٧٥، والثالث بتحقيق عبدالكريم العزباوي عام ١٩٧٥م.

(٤) طبع بتحقيق د/العطية عام١٩٧٦.

وهذه المعجات الثلاث هي كل ما وصل إلينا –خلال القرون الأولى– من معاجم الألفاظ سليما من عوادي الزمن.

أما «الجيم» للنضر بن شميل (ت: ٢٠٣هـ) و«الجيم» لأبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (ت: ٢٥٥هـ) و«البارع في علم اللغة» لأبي طالب المفضل بن سلمة بن عاصم (ت: في حدود ٣٠٠هـ) فلم يصل إلينا إلا ذكرها[١].

وإليك حديثا عن أبرزها كتاب «العين» للخليل، فيما يلي:

(١) الفهرست: ٧٧، ١٠٩.

كتاب العين

((للخليل بن أحمد الفراهيدي ((ت: ١٧٥هـ))))

من ثمرات الجهود اللغوية تأليف كتاب العين، ألفه الخليل بن أحمد الفراهيدي في صورة شاملة جامعة لمواد اللغة، وبطريقة مبتكرة استوعبت جميع المواد استيعابا لم يدر بخلد أحد سواه، وتم لهذا المعجم الذي سماه مؤلفه ((كتاب العين)) أن يظهر ويملأ الآفاق.

ولما كان العين أول معجم شامل للغة التتريل اقتدت به طائفة كبيرة من المعاجم، فأكتفي بدراسته ممهدا لذلك بتحقيق نسبة الكتاب إلى الخليل. فيما يلي:

أ- آراء العلماء في مؤلف العين:

تعددت آراء الباحثين في إثبات نسبة كتاب ((العين)) إلى: الخليل بن أحمد الفراهيدي. وكثر الجدل بين القدماء منذ رؤيتهم له في (البصرة)[1]، ثم امتد الخلاف بعد ذلك بصورة لم نعهدها في كتاب آخر.

ويمكن رد هذه الأقوال –جميعا– إلى ثلاثة مذاهب:

١- مذهب يرى صحة نسبة الكتاب إلى الخليل فكرة وتأليفا (حشوا).

٢- مذهب على النقيض منه: يرى عدم صحة هذه النسبة، ويقول بأن الخليل لم يؤلف هذا الكتاب، وإنما ألفه غيره، وهو: الليث بن المظفر (تلميذ الخليل).

---

(١) المزهر: (١/٨٤).

٣- مذهب ثالث حاول الجمع والتوفيق بين الرأيين المتعارضين: فذهب إلى أن الخليل واضع الفكرة، أما التأليف والتنفيذ فقد قام به الليث.

- ونحن نعرض هنا قول كل فريق في ضوء ما دار حوله من نقاش للباحثين المحدثين[1]:

الفريق الأول:

وعلى رأسه المبرد (ت: ٢٨٥هـ) وابن دريد (ت: ٣٢١هـ) والزجاجي (ت: ٣٣٧هـ) وابن درستويه (٣٤٧هـ).. قال ابن دريد في الجمهرة: «وألف أبوعبدالرحمن الخليل بن أحمد الفرهودي -رضوان الله عليه- كتاب «العين»، فأتعب من تصدي لغاية، وعني عن سما إلى نهايته، فالمصنف له بالغلب معترف، والمعاند متكلف، من بعده له تبع أقر بذلك أم جحد[2]..».

وقال السيوطي عن الثلاثة الآخرين، إذ لم نعثر لهم على قول صريح في تصحيح النسبة: «وقديما اعتنى به (العين) العلماء وقبله الجهابذة، فكان المبرد يرفع من ذكره، ورواه أبومحمد بن درستويه -وله كتاب في الرد

(١) د.حسين نصار: المعجم العربي: (١/٢٧٩)، عبد الغفور عطار: مقدمة الصحاح: (٦١)، د.عبدالله درويش: المعاجم العربية (٢٦)، ومقدمة العين: (٧)، د. أحمد مختار عمر: البحث اللغوي عند العرب: (١٣٨)، عبدالحميد الشلقاني:روايةاللغة: (١٢). د.عبدالسميع محمد أحمد: (المعاجم العربية)، د.محمد أحمد أبوالفرج (المعاجم اللغوية)، وغيرهم.

(٢) جمرة اللغة: (١/٣).

على المفضل بن سلمة فيما نسبه إليه من الخلل، ويكاد لا يوجد لأبي إسحاق الزجاجي حكاية في اللغة إلا منه[١]». وهذا النقل من السيوطي، وأن لم يكن صريحا، فهو عندي كالصريح.

الفريق الثاني:

من أشهرهم: النضر بن شميل (٢٠٤هـ) سئل عنه فأنكره، فقيل له: لعله ألفه بعدك؟ فقال: «أو خرجت من البصرة حتى دفنت الخليل![٢]».

وأبوحاتم السجستاني (٢٥٥هـ) روى عنه أبو علي القالي (٣٥٩هـ) «لما ورد كتاب العين في بلد خرسان من زمن أبي حاتم، أنكره أبوحاتم وأصحابه أشد الإنكار، ودفعه بأبلغ الدفع[٣]..».

والأزهري (٣٧٠هـ) قال: فمن المتقدمين: الليث بن المظفر، الذي نحل الخليل بن أحمد كتاب (العين) جملة، لينفقه باسمه، ويرغب فيه من حوله[٤]..» وابن النديم (٣٧٧هـ) قال: «لم يرو هذا الكتاب عن الخليل ابن أحمد، ولا روى في شيء من الأخبار أنه عمل هذا البتة[٥]»، ويبدو أن هذا الفريق متحامل على الخليل.

---

(١) المزهر: (٨٩/١).

(٢) معجم الأدباء: (٥١/١٧).

(٣) المزهر: (٨٤/١).

(٤) التهذيب: (٢٨/١).

(٥) الفهرست: (٦٤).

الفريق الثالث:

وهم الذين ذهبوا إلى أن الخليل قد وضعه لكنه عوجل قبل أن يتمه، وقد اختلفوا فيما بينهم في القدر الذي وضعه الخليل أهو الفكرة فقط، أم الترتيب، أم تنفيذ بعض الأبواب؟.

وأصحاب هذا الفريق كثيرون، منهم: ثعلب (٢٩١هـ) نقل عنه أبوالطيب اللغوى قوله: أن الخليل كان منقطعا إلى الليث فلما صنف كتابه العين خصه به، فوقع منه موقعا عظيما وأقبل على حفظه وملازمته وحفظ نصفه، ثم اغتاظت منه زوجته، فأحرقت النسخة التي كانت بحوزته، فاستدرك النصف من حفظه، وجمع على النصف الباقي علماء أهل زمانه، فإذا تأملته -على حد قوله- تراه نصفين: النصف الأول أتقن وأحكم، والنصف الثاني مقصر عن ذلك[١] ..».

- وأبو الطيب اللغوي: (٣١٥هـ) قال: «إنه هو الذي رتب أبوابه وتوفي قبل أن يحشوه[٢]».

- وأبوبكر الزبيدي (٣٧٩هـ) قال: «وأكبر الظن فيه أن الخليل سبب أصله، ورام تثقيف كلام العرب ثم هلك قبل إكماله[٣]».

- وأبو الفتح ابن جني (٣٩٢هـ) قال -بعد أن منع نسبة كل ما فيه

---

(١) معجم الأدباء: (١٧/٤٦)، المزهر: (١/٧٧).

(٢) مراتب النحويين: (٥٣)، وضمير الفاعل يعود إلى «الخليل».

(٣) مختصر العين: المقدمة، المزهر: (١/٨٢).

إلى الخليل، ولما وجد فيه من الخلط والخلل والفساد: ((وإن كان للخليل عمل، فإنما هو أومأ إلى عمل هذا الكتاب إيماء، ولم يله بنفسه ولا قرره ولا حرره[١]..)).

- وكذلك يرى ابن فارس (٣٩٥هـ) أن الرواة قد تزيد فيه.. قال في المقاييس: ((قد ذكرت فيه كلمات عن الخليل وغيره وأراها غلطا من الرواة عنه، فأما الخليل فأعلى مرتبة من أن يصحح هذا[٢])).

والذي أراه أن ما ذهب إليه هذا الفريق أقرب إلى الصحة؛ لأن القول الذي روي عن الليث يؤيده، حيث قال: ((وكنت أسير إلى الخليل ابن أحمد فقال لي يوما: لو أن إنسانا قصد وألف حروف ألف وباء وتاء وثاء على ما أمثله لاستوعب في ذلك جميع كلام العرب، فتهيأ لي أصل لا يخرج عنه شيء منه البتة، قال: فقلت له: وكيف يكون ذلك؟ قال: يؤلفه على الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وأنه ليس يعرف للعرب كلام أكثره منه... فجعلت أستفهمه ويصف لي ولا أقف على ما يصف، فاختلف إليه في هذا المعنى أياما ثم اعتلّ وحججت، فما زلت مشفقا عليه وخشيت أن يموت في علته فيبطل ما كان شرحه لي، فرجعت من الحج وسرت إليه فإذا هو قد ألف الحروف كلها على ما في صدر هذا الكتاب،

---

(١) الخصائص: (٣/٢٨٨).

(٢) مقاييس اللغة: ٣٤٦/٤ (عضم)، وورد في النسخة المطبوعة (يصحح) وأميل إلى أنها (يصحف) لدلالة السياق.

فكان يملي على ما يحفظ، وما يشك فيه يقول لي: سل عنه فإذا صح فأثبته إلى أن عملت الكتاب[١].

وفي نظري أنه اعتراف من الليث: بأن الخليل قد ابتكر المنهج واستحضر المواد في ذهنه، ثم أخذ يملي على الليث من حفظه، فلما رآه أنه لا يستطيع تهذيب الكتاب، وتمحيص المشكوك فيه، حضه على سؤال العلماء، وقام الليث بذلك حتى أنهى الكتاب.

ولم لا نكتفي بهذا القول من عالم «فقيه، جهد به المأمون أن يوليه القضاء فلم يفعل[٢]» زهدا فيه، وإبراء لذمته؟ فنثق بما يقول، ونقي أنفسنا عناء الخوض فيما لا قطع فيه؟! لا سيما وأنّ دراسة الكتاب تعاضد ما قاله الليث آنفا: من وجود حوار بين الليث والخليل[٣]، وذكر لبعض أعلام جاءوا بعد الخليل[٤] فاستفاد منهم الليث منفذا وصية شيخه بالسؤال عما أشكل عليه أو شك فيه، ووجود أخطاء علمية كانت موضع انتقاد ابن جني حيث قال: «أما كتاب العين ففيه من التخليط والخلل والفساد ما لايجوز أن يحمل على أصغر أتباع الخليل فضلا عن نفسه[٥]». ولعل ذلك مذهب وسط يهدي إلى الرأي الصحيح.

---

(١) الفهرست: (٦٤).

(٢) الفهرست: (٦٥).

(٣) العين: (١/٥، ٩١، ١٠٣).

(٤) العين: (١/٤٣، ٦٢، ٧٠، ١٠٨).

(٥) الخصائص: (٣/٢٨٨).

ب- توثيق العين:

صرحت المصادر القديمة بأن الخليل هو مؤلف «العين» ووثقت تأليفه الكتاب بأسانيد متصلة، حيث روي الكتاب بستة أسانيد تلتقي جميعا بالليث ابن المظفر راويه الوحيد عن الخليل.

الإسناد الأول:

«قال معاذ عبدالله بن عائذ: حدثني الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل بجميع ما في هذا الكتاب[(١)] وبه طبع الجزء الأول منه.

الإسناد الثاني:

روى أبوعمرو شمر بن حمدويه الهروي (٢٥٥هـ) كتاب العين عن محارب عن الليث عن الخليل[(٢)].

الإسناد الثالث:

ذكر أبومحمد بن درستويه (٣٤٧هـ) أنه سمع كتاب العين عن أبي الحسن على بن مهدي الكسروي، عن محمد بن منصور المعروف بالزاج المحدث (حفيد الليث) عن الليث بن المظهر عن الخليل[(٣)].

---

(١) العين: (١/٥٣)، وانظر مقدمة التحقيق.

(٢) تهذيب اللغة: (١/٣٠).

(٣) الفهرست: (٤٣، ٦٥).

الإسناد الرابع:

ذكر ابن فارس أنه روى كتاب العين عن علي بن إبراهيم القطان قراءة عليه- عن أبي العباس أحمد بن إبراهيم المعداني، عن أبيه إبراهيم بن إسحاق، عن بندار بن لزة الأصفهاني، ومعروف بن حسان عن الليث عن الخليل[١].

الإسناد الخامس:

روى أبو علي الغساني كتاب العين عن الحافظ أبي عمرو بن عبدالبر، عن عبدالوارث بن سفيان عن القاضي منذر بن سعيد عن أبي العباس أحمد بن أحمد بن ولاد النحوي، عن أبيه، عن الحسن علي بن مهدي، عن أبي معاذ عبدالجبار بن يزيد، عن الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل[٢]..))

ذكر ابن خير الأشبيلي (٥٧٥هـ) في معجم شيوخه سنده في رواية كتاب العين فقال: ((حدثني به شيخنا أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث رحمه الله أذنا ومشافهة، عن القاضي أبي عمر أحمد بن محمد بن يعي بن الحذاء وحدثني به أيضا الشيخ أبومحمد بن عتاب رحمه الله إجازة عن أبوي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري وأحمد بم محمد بن يحى بن الحذاء قالا: حدثنا به أبو القاسم عبد الوارث سفيان بن حبرون، قال:

---

(١) مقاييس اللغة: (١/٣).

(٢) المزهر: (١/٩٢)

حدثني به القاضي منذر بن سعيد البلوطي عن أبي العباس أحمد بن الوليد المعروف بولاد التميمي النحوي عن أبيه محمد بن الوليد عن أبي الحسن على بن مهدي عن أبي معاذ عبد الجبار بن يزيد عن ليث (كذا) بن المظفر (بن نصر) بن سيار الليثي، عن أبي عبد الرحمن عن (كذا) الخليل ابن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي رحمه الله[1]..))

وبعد، فأقول إن هذه الأسانيد الستة التي يراد بها إثبات تأليف الخليل للعين تنتهي جميعا إلى الليث بن المظفر، فغاية ما تدل عليه – عندي- أنها سند واحد لا ينهض دليلا على أن الخليل ألف العين كله.

وأرى أن الأقرب إلى الصواب هو الرأي القائل بأن الفكرة وبداية التنفيذ للخليل، الذي حين أحس بدنو الأجل أوصى الليث بن المظفر بحشو الكتاب على النحو الذي رسمه، مع الاستعانة بالثقات إن احتاج الأمر، ففعل...والله أعلم.

منهجه:

رمى الخليل بتأليف معجمه إلى ضبط لغة العرب وحصرها في كتاب مرتب، وسلك في سبيل تحقيق ذلك خطوات ثلاثا:

الخطوة الأولى: ترتيب الحروف:

لم يرتض الخليل الترتيب الأبجدي القديم ولا الترتيب الهجائي

---

(١) فهرست ابن خير: (٣٥٠).

المعروف «فأعمل فكره فيه، فلم يمكنه أن يبتدئ التأليف من أول: أ ب ت ث. وهو الألف؛ لأن الألف حرف معتل، فلما فاته الحرف الأول كره أن يبتدئ بالثاني -وهو الباء- إلا بعد حجة واستقصاء، فدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها، فصير أولاها بالابتداء أدخل حرف منها في الحلق[١]» ثم استكمل ترتيب الحروف على أساس مخرجها من جهاز النطق فأصبحت هكذا: العين والحاء والهاء والخاء والغين، ثم القاف والكاف، ثم الجيم والشين والضاد، ثم الصاد والسين والزاي، ثم الطاء والدال والتاء، ثم الظاء والثاء والذال، ثم الراء واللام والنون، ثم الفاء والباء والميم، ثم الواو والألف والياء والهمزة[٢].. وقسمها إلى مجموعات بحسب مخارجها وسماها على التوالي: المجموعة الحلقية فاللهوية فالشجرية فالأسلية فالنطعية فاللثوية فالذلقية فالشفوية فالهوائية[٣].

الخطوة الثانية: حصر الأبنية:

بعد أن تم له هذا الترتيب الدقيق للحروف، نظر في كلام العرب -الذي تتكون مادته من هذه الحروف- فوجد أنه «مبني على أربعة أصناف: على الثنائي

---

(١) العين (الجزء المطبوع): ٥٢.

(٢) نفسه: (٥٣، ٦٥).

(٣) نفسه: (٦٤، ٦٥).

والثلاثي والرباعي والخماسي[١]..» «وليس للعرب بناء في الأسماء ولا في الأفعال أكثر من خمسة أحرف[٢]» فالثنائي: نحو: قد ولم وهل، وصه ومه وغيرها من الأدوات والزجر. ولا يكون في الأسماء «لأن الاسم لا يكون أقل من ثلاثة أحرف: حرف يبتدأ به، وحرف تحشى به الكلمة، وحرف يوقف عليه[٣]..» فإن استعملت الثنائي اسما زدت حرفا مماثلا وأدغمته فقلت: هذه لو مكتوبة، وهذه قد حسنة الكتبة[٤].

والثلاثي من الأفعال: نحو ضرب وخرج ودخل، ومن الأسماء: نحو عمر وجبل وشجر، والرباعي من الأفعال: نحو دحرج وهملج وقرطس، ومن الأسماء: عبقر وعقرب وجنذب، والخماسي من الأفعال: نحو: اسحنكك واقشعر، واسحنفر واسبكر» والألف... ليست من أصل البناء، وإ نما أدخلت هذه الألفات في الأفعال وأمثالها من الكلام لتكون الألف عمادا وسلما إلى حرف البناء[٥]»). ومن الأسماء نحو: سفرجل وقبعثر.

ثم نظر في هذه الأبنية فوجدها إما صحيحة أو معتلة باعتبار بعض حروفها، فقسم الأبنية السابقة تبعا لذلك كما يلي[٦]:

---

(١) نفسه: (٥٣).

(٢) نفسه: (٥٥).

(٣) العين: (٥٥).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفسه: (٥٤).

(٦) العين (الجزء المطبوع)، المزهر: (١/٨٥) وما بعدها.

١- الثنائي المضاعف (أو الثنائي الصحيح): وهو ماكانت صورته الظاهرة تجمع بين حرفين صحيحين: حتى لو تكرر أحدهما..نحو: قدقد، قد، ولا يشكل دخول المثال الثاني والثالث –عنده- في باب (الثنائي)؛ لأنه يرى أن الأصل فيهما حرفا القاف والدال، أو لكونهما لا يأتي من أي منهما إلا صورتان (تقليبيان).

٢- الثلاثي الصحيح: هو ما كان من ثلاثة أحرف صحاح مثل: عتق، غلب، أو أربعة أحرف أحدهما مكرر مثل: دهدع.

٣- الثلاثي المعتل: وهو ما كان على ثلاثة أحرف أحدهما حرف علة نحو: وتد ذود، ثدي.

٤- الثلاثي اللفيف: وهو ما اجتمع فيه حرفا علة مفروقين نحو: وعى، أو مقرونين نحو: روى.

٥- الرباعي الصحيح: وهو ما كان على أربعة أحرف صحاح نحو: كردس وجعفر.

٦- الخماسي الصحيح: وهو ما كان على خمسة أحرف صحاح نحو: سفرجل.

٧- الرباعي والخماسي المعتلين: وهو ما كان أحد حروفهما أو أكثر من حروف العلة نحو: آية بؤبؤ.

وتناول الخليل هذه الأبنية على هذا الترتيب عند تناول لكل حرف من الحروف الصحيحة ابتداء من العين وانتهاء بالميم، ما عدا الرباعي والخماسي المعتلين، فقد أخرهما إلى آخر الكتاب حيث عقد بابا للحروف

المعتلة.. وهذا الوصف للموجود من نسخ العين يخالف ما نقله الزبيدي عنه في استدراكه عليه حيث زعم أن الخليل خلط بين الرباعي والخماسي من أولهما إلى آخرهما.. ذلك أن الملاحظ من الخلط إنما هو في اعتبار أصالة بعض الحروف وزيادتها لا في الباب كاملا[١].

الخطوة الثالثة: فكرة التقاليب:

أدرك الخليل بثاقب نظره أن حصر اللغة بطريق الاستقراء أمر غير ميسور بل هو في عداد المستحيل، فأسعفته عقليته الرياضية إلى تقليب الأبنية الأربعة المتقدمة (الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي) على جميع وجوهها؛ لأنها غاية ما يتصور العقل النطق به، ثم استخرج ما وجد في اللغة فعلا وسماه «المستعمل» وترك ما عداه وأطلق عليه «المهمل».

وبسلوك هذا المنهج استطاع حصر الألفاظ العربية على النحو الآتي:

١- «الكلمة الثنائية: تتصرف على وجهين نحو: قد، دق.

٢- والكلمة الثلاثية: تتصرف على ستة أوجه -وتسمى مسدوسة- نحو: ضرب، ضبر، برض، بضر، رضب، ربض.

٣- والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها وهي أربعة أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي ستة أوجه فتصير أربعة وعشرين وجها، يكتب مستعملها ويلغى مهملها.

---

(١) المعجم العربي: (١/٢٤٩).

٤- والكلمة الخماسية: تتصرف على مائة وعشرين وجها، وذلك أن حروفها وهي خمسة أحرف تضرب في وجوه الرباعي وهي أربعة وعشرون وجها[١] فتصير مائة وعشرين وجها، يستعمل أقله ويلغى أكثره[٢]..»

وبعد أن رسم الخليل منهج الكتاب، قام بحشوه بالمواد -أو قام بذلك تلميذه الليث وفق منهج الخليل على الخلاف المتقدم- فبدأ بحرف العين، تناول فيه بناء الثنائي ومقلوباته (المستعمل منها) مع الحروف الممكنة وشرح مواده، ثم بناء الثلاثي الصحيح المبدوء بحرف العين وقلبه أيضا على ستة أوجه، وشرح المستعمل منه.. وكذلك فعل بالرباعي والخماسي لكنه لم يحصل منه إلا على قليل..

فلما انتهى من حرف العين انتقل إلى الحرف الذي يليه وهو الحاء، فقسم المواد على الأبنية نفسها، واتبع نظام التقليب نفسه... وهكذا مع سائر الحروف حتى وصل إلى الميم آخر الحروف الصحيحة.

وتبعا لهذا المنهج رأينا أن مواد الحروف تنقص كلما اقتربنا من نهاية الكتاب فمواد حرف العين أكثر من مواد حرف الحاء وهكذا حتى لا نجد للميم شيئا يذكر من المواد.

---

(١) في الأصل: حرفا ولعلها محرفة عما أثبتناه.

(٢) العين: (١/٦٦).

مادته:

لا تخرج مادة الكتاب عما سمعه من لغة العرب أو وصل إليه مكتوبا في الرسائل اللغوية التي ضمت بعض هذه اللغة بالمشافهة أو النقل، من هنا نجد أن الصلة قوية بين ظواهر مادته وتلك الرسائل التي سبقت العين في الوجود، مما يؤكد ما قلناه من قبل بأن الخليل قد استقى من هذه الرسائل في تأليف مواده[١].. ويمكن أن نوجز أوجه الشبه فيما يأتي:

١- الاعتناء بالناحية اللغوية الصرفة أكثر من غيرها، وتعريف ما يتعلق بالنبات والحيوان والأعلام تعريفا دقيقا، فهو يقول مثلا: «القفعاء: حشيشة خوارة، خشناء الورقة من نبات الربيع لها نور أحمر مثل الشرار، وأوراقها مستعليات من فوق، وثمرها متفقعة من تحت»[٢].

٢- الاهتمام باللغات واللهجات العربية، والنص على كثير منها.. فوصف عنعنة تميم، وكشكشة ربيعة، وقطعة طيئ[٣]، وأشار إلى لهجة هذيل ولهجة أهل اليمن[٤]، وقد يكتفي بالتنبيه على أنها «لغة دون نسبتها إلى قائليها[٥]. وبلغ عدد إشارته إلى اللغات في الجزء الأول أكثر من خمس

---

(١) المعجم العربي: (٢/٢٥٥).

(٢) العين (قفع) ١/٢٠٠.

(٣) العين: (١/١٠٤، ١٥٦).

(٤) نفسه: (١/١٩٣، ١٨٥).

(٥) نفسه: (١/١٥٨، ١٧٢).

وثلاثين لغة. وأشار إلى غير العربية من اللغات مرة واحدة[١].

أما مواضع الاختلاف عنها.. فتظهر بجلاء في المنهج الذي اختطه ولم يسبق إليه.. فوجه اهتمامه إلى الألفاظ نفسها، فذكر اشتقاقها ورتب الصيغ المتفرعة من اللفظ في أغلب الأحيان بذكر الفعل الماضي فالمضارع ثم يعقبه بالمصدر أو المصادر يورد بعدها الصفات الممكنة للمذكر أو المؤنث يقول: «نعق الغراب، نعاقا ونعيقا[٢]»، «والعنق: من سير الدواب، والنعت معناق ومعنق وعنق، وسير عنيق[٣]»، «والهجوع: نوم الليل دون النهار..وقوم هجع وهجوع وهاجعون، وامرأة هاجعة ونسوة هجع وهواجع وهواجعات[٤]».

وقد غلب عليه استعمال القياس في اللغة مخالفا بذلك منهج البصريين -فيما بعد- من عدم جوازه فيها؛ لأنها وضعت وضعا نقليا لا عقليا بخلاف النحو[٥]، وقد أحسن استعمال القياس باعتماده على الاشتقاق والتعليل، يقول: «امرأة عاقرة.. وقد عقرت تعقر، وعقرت تعقر

---

(١) العين: (١/ ٢٣٢).

(٢) العين: (١/ ١٩٤).

(٣) نفسه: (١/ ١٩١).

(٤) نفسه: (١/ ١١٣).

(٥) الاقتراح: (٩٥).

أحسن؛ لأن ذلك شيء يترل بها وليس من فعلها بنفسها[١]..» فإن وجد صيغة تعارض قياسه حملها على الشذوذ في لغة بعض العرب.. يقول: «رجل أعجف وامرأة عجفاء، وتجمع على عجاف ولا يجمع أفعل على فعال غير هذا -رواية شاذة عن العرب- حملوها على لفظ سمان[٢]». كما وجه عنايته إلى التفسير الاشتقاقي للمواد التي يعالجها كما في لفظ (خدع، علج، عق، فقع، عجب وغيرها»، وربما وضح اشتقاق بعض الأعلام، يقول «عكاظ: اسم سوق.. وسمي به لأن العرب كانت تجتمع فيه كل سنة فيعكظ بعضها بالمفاخرة والتناشد؛ أي يدعك ويعرك[٣]»، أما شواهده فكانت نثرية وشعرية فاستشهد بأعلاها وهو القرآن الكريم -وسنوضحه- وبالحديث الشريف[٤]، وبالأمثال[٥] وبالأقوال المأثورة عن الفصحاء[٦]. وبالشعر[٧] وهو أكثر أنواع الشواهد عنده.

---

(١) العين: (١/١٧١).

(٢) العين: (١/٢٦٩).

(٣) نفسه: (١/٢٢٢).

(٤) نفسه: (١/٧٠، ٧٧، ٨٤، ٨١، ١٢٩).

(٥) نفسه: (١/٩٥).

(٦) نفسه: (١/٧٥، ٢٥٢).

(٧) نفسه: (١/٨٠، ٧٨، ٩٦، ٩٨، ٧٢.) وغيرها.

تأثره بالقرآن:

كتاب «العين» كسائر المعاجم اللغوية التي جاءت تالية له، لا تختلف في التأثر العام بالقرآن الذي دعا لوجودها حفاظا على الثروة اللفظية للغة العرب، أما الأثر الخاص الذي يمكن لنا مشاهدته في كتاب العين.. فيكمن في الآيات القرآنية العديدة التي جاء بها شواهد على صحة مادته وأنها متمشية مع ما يفهمه العرب الأقحاح من اللفظ القرآني الشريف.. حيث زادت عن العشرين شاهدا في الجزء المطبوع فاستشهد للفعل (عز) بمعنى غلب (غلب) بقول الله عزوجل: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ[1]﴾وفرق بين الخشوع والخضوع فوضح أن الخشوع في الصوت والبصر، وأن الخضوع بالجوارح الأخرى.. واستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ[2]﴾ وقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا[3]﴾ وفسر: الدع بالدفع الشديد مع العنف والانتهار واستشهد لذلك من بقوله القرآن: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ[4]﴾.

---

(١) سورة ص آية: ٢٣، انظر العين: (١/٨٨) (ع ز).

(٢) سورة المعارج: (٤٤).

(٣) سورة طه: (١٠٨) وانظر العين: (١/١٢٩).

(٤) سورة الماعون آية: (٢).

فقال: «وقطع الرجل بحبل أي اختنق، ومنه (ليقطع)[١] أي ليختنق[٢]»، وربما انصرف إلى معنى الآية إجمالا دون تحديد الألفاظ المفردة.. قال في شرح قوله عزوجل:﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا[٣]﴾ يعني أن الأنفاس تحصى إحصاء ولها عدد معلوم[٤]) وإذا كانت هناك أكثر من قراءة نبه عليها وعلى معانيها.. يقول معلقا على قوله تعالى:﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ[٥]﴾ وقرئ: يعكُفون ويعكِفون. ولو قيل : عكف في المسجد. لكان صوابا، ولكن يقولون: اعتكف. قال الله عز وجل:﴿وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ[٦]﴾[٧]..» فهو يخطئ: «اعتكف» لأنها لم ترد في القرآن.. بل الوارد: «عكف».. وهذا هو منهجه في تقديم القراءة على الشائع. والله أعلم.

---

(١) سورة الحج: (١٥).

(٢) العين: (١/١٥٥).

(٣) سورة مريم: (٨٤).

(٤) العين: (١/٩٠).

(٥) سورة الأعراف: (١٣٨).

(٦) سورة البقرة: (١٨٧).

(٧) العين: (١/٢٣٣).

الفصل الثاني ضبط اللغة

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: النقط والشكل.

المبحث الثاني: الدراسة الصوتية.

المبحث الثالث: الدراسة النحوية.

لم يتوقف أثر القرآن عند جمع اللغة والحث على استقصائها وتدوينها في كتب جامعة على النحو الذي أسلفناه، بل تجاوزه إلى الدعوة لضبط هذا التراث وحفظه من أن يتطرق إليه تيار العجمة فيقع فيه التحريف والتصحيف ويعتوره الخطأ والخلل.

وقد استجاب العلماء لذلك واضعين نصب أعينهم خدمة الكتاب العزيز أولا، وخدمة اللغة العربية ثانيا، فقامت الجهود اللغوية الأولى في وجه مد اللحن الجارف لسليقة العربي لتحصين اللغة من الوقوع في الخطأ، وأعطوا هذا الأمر عنايته منذ اللحظات الأولى لتأريخ القرآن، فوجدوا أن اللحن سيشمل عناصر اللغة الثلاثة: الصوت، والكلمة، والتركيب.. فاجتهدوا لدرء الخطر عنها جميعا بما ألفوه في مجالات الأصوات وبناء الكلمة، وبناء الجملة.

وكان أول ما قاموا به في مجال رموز الأصوات: «النقط والإعجام والشكل» وذلك بضبط النص المكتوب تبعا للصحيح الملفوظ حتى ينطق الحرف صحيحا فيؤمن الخطأ من جانبه، ثم تطور نقط الإعراب ليجعلهم يفكرون في وضع علمي: «النحو والصرف» للمحافظة على بناء الكلمة وصحة التركيب العربي، وعالجوا من خلاله بحوثا أخرى تتعلق «بالأصوات».ونقف فيما يلي على مظاهر العناية بضبط اللغة وتأثير القرآن في الدعوة إليها من خلال المباحث الثلاثة التالية:

المبحث الأول: النَّقط والشَّكل

أولا: النقط:

هو رسم دوائر مغلقة على بعض الحروف أو تحتها لتمييزها عما عداها في الصوت أو الحركة[1].. وله معنيان:

أ- نقط الإعجام: وهو نقط الحروف في ذواتها للتفريق بين المشتبه منها في الرسم، كنقط الباء بنقطة واحدة من أسفلها، ونقط التاء باثنتين من أعلاها... وهكذا. وهذا النوع لا يزال معروفا إلى اليوم.

ب- نقط الإعراب: وهو نقط الحروف جميعا للتفريق بين حركاتها المختلفة، مثل: جعل الفتحة نقطة من فوق الحرف، وجعل الكسرة نقطة من تحت الحرف.. وهكذا. وقد اندثر هذا النوع من الخط العربي ولم يعد أحد ينقط به بعد أن حلّ «الشكل» محله، ونظراً لِقِدَمِه فسنُقَدّمه في الحديث.

نقط الإعراب:

لعل أول عملٍ قام به علماء العربية تجاه اللغة هو ضبطهم إياها بنقط الإعراب، وكان في أول أمره يسمى «النقط»؛ لأنه كان يرسم نقطا مدورة، دفع إليها صون القرآن من اللحن الذي تفشى في ألسنة الناس وأخذ يتفاقم بمرور الأيام حتى خشي على لغة التنزيل أن يصيبها شيء من

---

(١) قصة النقط: ٦٨.

ذلك يفسد معانيها وأحكامها. يقول أبو عمرو الداني: «إن الذي دعا السلف رضي الله عنهم إلى نقط المصاحف... ما شاهدوه من أهل عصرهم -مع قربهم من زمن الفصاحة ومشاهدة أهلها- من فساد ألسنتهم واختلاف ألفاظهم وتغير طباعهم، ودخول اللحن على كثير من خواص الناس وعوامهم، وما خافوه مع مرور الأيام وتطاول الأزمان من تزيد ذلك وتضاعفه فيمن يأتي بعد ممن هو - لا شك في العلم والفصاحة والفهم والدراية- دون من شاهدوه ممن عرض له الفساد ودخل عليه اللحن، لكي يرجع نقطها ويصار إلى شكلها، عند دخول الشكوك وعدم المعرفة، ويتحقق بذلك إعراب العلم، وتدرك به كيفية الألفاظ[(١)]».

ووقف ولاة الأمر -في عهد بني أمية- من هذا الخطر موقفا حازما[(٢)] دفع زيادا، والي معاوية على العراق، أن يسارع إلى أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) الأديب المفكر الذي عاش في البصرة ردحا من الزمن كاتبا لعبد الله ابن عباس إبان خلافة عمر بن الخطاب ثم عاملا عليها في خلافة عثمان وعلي رضي الله عنهما[(٣)]، ورأى ما طرأ على العربية وألسنة

---

(١) المحكم في نقط المصاحف: (١٨، ١٩).

(٢) روي أن معاوية كتب إلى زياد يطلب ابنه عبيد الله، فلما قدم كلمه فوجده يلحن، فرده إلى زياد، وكتب إليه كتابا يلومه فيه: (انظر: البيان والتبيين: ٢١٣/٢، ومراتب النحويين: ٦).

(٣) إنباه الرواة: (٥/١)، الأغاني: (١٠١/١٢)، بغية الوعاة(٢٢/٢)..

العرب من انحراف عن الفصحى بشيوع الأخطاء وازدياد الفساد اللغوي؛ فهو من أقدر الناس على إيجاد حل لهذا الخطر المحدق بسلامة العربية، وطلب منه أن يعمل على ضبط ألفاظ القرآن بما يحفظها من اللحن قائلا: ((يا أباالأسود: إن هذه الحمراء قد كثرت وأفسدت من ألسن العرب، فلو وضعت شيئا يصلح به الناس كلامهم ويعربون كتاب الله تعالى[١])).

وتردد أبوالأسود في الاستجابة لهذا المطلب -على الرغم من اقتناعه بوجاهته- لما يعلمه من كراهة السلف لنقط المصاحف، وأن ذلك أمر لم يفعله الصحابة من قبل وهم أحرص الناس على القرآن، بل الذي ورد عنهم الأمر بتجريد القرآن وعدم إضافة إليه ما ليس منه؛ قال ابن مسعود رضي الله عنهم: ((جردوا القرآن ولا تخلطوه بشيء[٢]))، وكاد أن يرفض طلب زياد، لولا أنه سمع في الطريق قارئا يقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ[٣]﴾ بجر اللام في كلمة (رسوله)، فاستعظم ذلك وقال: ((عز وجه الله أن يبرأ من رسوله)) ثم ذهب من فوره إلى زياد وقال له: ((قد أجبتك إلى طلبك ورأيت أن أبدأ بإعراب القرآن[٤])).

---

(١) المحكم في نقط المصاحف: (٣).

(٢) مناهل العرفان: (١/٤٠١).

(٣) سورة التوبة: (٣).

(٤) إنباه الرواة: (٥، ٦)، المحكم: (٤)، وهذا خير من تعليل آخرين بأن سبب الرفض يعود إلى جفاء مع الأمويين لعزله عن ولاية البصرة. (انظر: حياة اللغة: ٨٤، الدراسات اللغوية: ٥٤).

واتخذ أبو الأسود كاتبا فطنا من عبد القيس -إحدى قبائل البصرة- وقال له: «إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقطْ نقطة فوقه على أعلاه، وإن ضممتُ شفتي فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت شفتي فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن أتبعت شيئا من ذلك غنَّةٌ (أي تنوينا) فاجعل مكان النقطة نقطتين، وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره. بينما كان الكاتب يضع النقط بصبغ يخالف لونه لون المواد الذي كتبت به الآيات[١]».

ويبدو أن أبا الأسود قد ذاق الحروف وحدد أماكن الحركات فوجد أن حركات الفم بالحرف ما هي إلا انفتاح وانكسار وانضمام. ولا شيء غير ذلك، أما السكون فلم يضع له علامة[٢]، ولعل العلماء قد أخذوا مصطلح (الفتحة والضمة والكسرة) من مقولته تلك.

ويلاحظ أن طريقة نقط أبي الأسود -هذه- إنما قصد بها أواخر الكلم من الحروف التي تحتمل الشكل الإعرابي، رفعا ونصبا وجرا، سواء أكانت مفردة أم منونة؟ ولم تكن لتستقصي حروف الكلمة جميعها؛ لأن «النقط والشكل -كما يقول ابن المنادى (ت٣٣٤هـ)- إنما جعل للضرورات المشكلات يسرا، لا أن ينقط كل حرف من الكلمة، سكن أو تحرك، فإذا ركب ناقط ذلك فقد خرج عن الحد إلى غيره، ولا طائل في ذلك كله[٣]».

---

(١) المحكم في نقط المصاحف: ٤، إيضاح الوقف والابتداء: ١/٤١، مراتب النحويين: ٢٩.

(٢) المحكم: (٤٢).

(٣) المحكم في نقط المصاحف: (٢١٠).

ويقول أبو حاتم السجستاني (ت: ٢٥٥هـ): «وإنما النقط على الإيجاز لأنهم لو تتبعوا كل ما ينبغي أن ينقط عليه فنقطوه لفسد المعنى[١]».

كان ذلك في أول الأمر، ولكن لما كثر التحريف وعم التصحيف فزع الحجاج بن يوسف إلى نصر بن عاصم (ت: ٨٩هـ) وطلب منه وضع حل لهذا اللحن الذي تفاقم خطره، فرأى «نصر» أن أفضل حل يقوم به لدرء هذا الخطر هو أن يعمم نقط «أبي الأسود» على جميع حروف الكلمة أولها وأوسطها وآخرها بنفس الطريقة التي وضعها أبو الأسود، مع مرعاة اختلاف لون مداد النقط في المصحف عن رسم كلمات القرآن[٢].

نقط الإعجام:

لم يكن ما فعله أبو الأسود الدؤلي من نقط الحركات الإعرابي ليحول دون تصحيف المكتوب وتحريفه، ويعصم الأفواه من الخطأ في وقت أثرت فيه العجمة على معظم السلائق اللغوية.

ولم يقف هذا الخلط في الحروف والخطأ في نطقها بعيدا عن كتاب الله عز وجل بل تسرب إليه، فصحف الناس بعض كلمات المصحف العثماني لالتباس بعض حروفه عليهم ولا سيما على الأعاجم منهم لعدم نقط حروف المصحف العثماني نقطا إعجاميا يفرق بين الحروف المتشابهة

---

(١) كتاب المصاحف: (١٤٤).

(٢) المحكم في نقط المصاحف: ٧، قصة النقط: ٧١.

في الرسم، فبرزت إلى الوجود مشكلة التمييز بينها، وسعى الولاة والعلماء إلى إيجاد حل لهذه المشكلة قبل أن تستفحل ويلحق ضررها بالقرآن الكريم ولغته، فندب الحجاج بن يوسف (ت: ٩٥هـ) —طاعة لأمير المؤمنين عبد الملك بن مروان (ت: ٨٢هـ)- رجلين يعالجان المشكلة بما أوتياه من فطنة ورسوخ قدم في العربية، وهما: نصر بن عاصم الليثي (ت: ٨٩هـ) ويحيى بن يعمر العدواني (ت: ١٢٩هـ) تلميذا أُبيّ الأسود الدؤلي (ت: ٦٩هـ)؛ وقيل[١] إنه أضاف إليهما ثالثا هو: الحسن البصري (ت: ١١٠هـ)، يؤكد ذلك الروايات التاريخية التالية:

* روى ابن خلكان: «أن الناس غبروا يقرأون في مصحف عثمان ابن عفان ﷺ نيفا وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان، ثم كثر التصحيف، وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كُتَّابه، وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة علامات، فيقال: إن «نصر بن عاصم» قام بذلك، فوضع النقط أفرادا وأزواجا وخالف بين أماكنها فغبر الناس زمانا لا يكتبون إلا منقوطا[٢]».

*وأورد أبو أحمد العسكري قصة نقط الإعجام، ونسبه إلى «نصر بن عاصم» بصيغة البناء للمجهول[٣]، وقد رجح بعض الباحثين اشتراك

---

(١) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٧٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٢/٣٢.

(٣) التصحيف والتحريف: ١٣.

(يحيى بن يعمر) معه في العمل، فقال في حديثه عن الإعجام: «وبعد البحث والتروي قرر نصر (بن عاصم) ويحيى (بن يعمر) إدخال الإصلاح الثاني، وهو أن توضع النقط أفرادا وأزواجا لتمييز الحروف المتشابهة[١]».

*أما ابن عطية فقد روى عنه في قصة النقط هذه قوله: «أمر (أي الحجاج) وهو والي العراق، الحسن (البصري)، ويحيى بن يعمر العدواني بذلك (أي النقط[٢]) ويبدو أنه لا تضارب بين الروايات فهي لجنة ألّفها الحجاج لحل مشكلة الحروف المشتبهة من هؤلاء الثلاثة. وكل من الرواة ذكر من أعضاء هذه اللجنة من عرفه، ولا غرابة في اشتراك أكثر من واحد في عمل جسيم كهذا ينوء بحمله عاتق فرد، يوضح ذلك الطريق التي سلكوها في الوصول إلى حل هذه المشكلة بتميز ما يلتبس من رسم الحروف.. وهي:

١- أن يكون التمييز بين رسم الحروف الملتبسة بالنقط المدور –كنقط أبي الأسود الإعرابي– ، وروعي أن يكون الاختلاف بينهما في لون المواد عند النقط فجعل نقط الإعجام هذا من لون مداد المصحف.

٢- النظر إلى الأحرف المتشابهة في الرسم للتمييز بينها بالنقط، أما الحروف غير المشتبهة فقد تركت على أصل وضعها وهي: الألف، الكاف ، اللام، الميم، الواو، الهاء.

---

(١) حفني ناصف: تاريخ الأدب: ٧١.

(٢) مقدمة ابن عطية: ٢٧٥.

٣- أن يكون التمييز بين الأحرف المتشابهة في الرسم بجمع كل مجموعة متشابهة على حدة مخالفا بذلك الترتيب الأبجدي القديم[١]، فإن كان التشابه بين حرفين فقط -وهو الغالب- أهمل الأول وأعجم الثاني بنقط واحدة من أعلاه: كالذال، والزاي، والضاد، والظاء، والغين..

ولم يشذ عن ذلك إلا «الشين» -بنقطها ثلاث نقط مع أنها حرف واحد- لأن صورتها ثلاثة أحرف فلو نقط جزء منها لأوقع في اللبس[٢].

وشذت (الفاء والقاف) أيضا عن القاعدة، وكان المفروض إهمال الأولى ونقط الثانية.. ولكن لما كانتا تشتبهان عند الاتصال بما بعدهما لزم التفريق بينهما بالنقط، ولم تنقط القاف نقطة واحدة من أسفل «لأن لفظها مفتوح[٣]» فنقطت بنقطتين من فوق، ونقطت الفاء بواحدة من فوقها.

أما إن كان التشابه بين أكثر من حرفين فالقاعدة نقط الأولى بنقطة واحدة من أعلى، والثانية باثنتين، والثالثة من أعلى، وشذّت الباء والجيم والياء بنقطها من أسفل، ولعل ذلك يعود إلى تعلق الكسر بهن؛ إما من حيث اللفظ كالجيم، أو العمل كالباء والياء[٤].

---

(١) يعد هذا الترتيب الهجائي المعروف اليوم (الألفبائي) من وضع نصر بن عاصم، لكنه لم ينتشر إلا في أواخر القرن الثاني الهجري (دراسات في القاموس: ٩٧، والمعاجم.

(٢) المحكم: ٣٨.

(٣) المحكم: ٣٨.

(٤) المحكم: ٣٧، ٤١.

وبهذه الأسس الدقيقة التي التزموها عند تنفيذ المنهج تم لهم حل هذه المشكلة وأمن جانب التصحيف، وترتب على عملهم هذا ظهور ترتيب جديد للحروف العربية يخالف الترتيب الأبجدي القديم، ملاحظ فيه جمع الأحرف المتشابهة في نسق بعضها البعض، تقديم الحروف الأقل نقطا على الأكثر نقطا، والحروف المهملة على المعجمة، وصار الترتيب الهجائي في المشرق هكذا:

(أ ب ت ث، ج ح خ، د ذ، ر ز، س ش، ص ض، ط ظ، ع غ، ف ق، ك ل، م ن هـ و ي).

وصار هذا الترتيب في المغرب هكذا:

(أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل مـــ ن ص ض ع غ ف ق س ش و هـ ي).

وكان الترتيب الأبجدي القديم هكذا:

(أ ب ج د، هـ و ز، ح ط ي، ك ل م ن، س ع ف ص، ق ر ش ت، ث خ ذ، ض ظ غ).

وقد لقي إعجام الحروف استحسانا من الخليفة عبد الملك بن مروان (ت: ٨٢هـ) فأصدر أمره إلى ولاته باتباع طريقة الإعجام، وحمل الناس عليها[١]، وظل الأمر كذلك إلى يومنا هذا.

---

(١) تاريخ الأدب أو حياة اللغة: ٣٥.

وقد طور الخليل في عمل اللجنة رسم ثلاثة أحرف[١] هي:

١- النون: فلم ينقطها إذا كانت مفردة لعدم اشتباهها بغيرها.

٢- والفاء: عند إفرادها لا تنقط، أما عند الوصل فتنقط واحدة من أعلاها.

٣- والقاف: عند الإفراد لا تنقط أيضا، فإذا وصلت نقطت نقطة واحدة من أسفلها.

ولم يرق هذا التحسين لأهل المشرق، فتلقفه المغاربة ونقطوا به مصاحفهم[٢].

ثانيا: الشكل:

يطلق الشكل على العمل الذي قام به الخليل بن أحمد (ت:١٧٥) من تطوير لنقط أبي الأسود الدؤلي لما رأى أن المصاحف قد ملئت بالنقط الإعرابي والإعجامي فأشكلت على كثير من الناس حتى أنه «لا يقدر أحد على قراءة في مصحف منقوط، إذا لم يكن عنده علم بالنقط، بل لا ينتفع به إن لم يعلمه[٣]» ومع ذلك فقد وقع كثير منهم في الخطأ عند التلاوة من المصحف نتيجة تشابه النقط والخلط بين الحروف لا سيما إذا اتحد لون المواد.

---

(١) المحكم: ٣٥، ٣٦.

(٢) انظر: المصحف الشريف (إصدار الشركة التونسية للتوزيع)

(٣) المحكم: ٢٤.

فرأى الخليل بثاقب نظره -وهو العبقري المفكر- أن يغاير بين نقط الإعراب ونقط الإعجام بشيء غير لون المواد، فأبقى على نقط الإعجام كما هو، وطور نقط الإعراب على النحو الآتي:

١- أبدل النقط الذي وضعه أبو الأسود للإعراب بحركات فصار على هيئة الأحرف، حيث جعل:

- الفتحة: ألفا صغيرة توضع مبسوطة وممدودة فوق الحرف المتحرك بها من اليمين إلى اليسار.. هكذا «ـَـ».

- والضمة: واوا صغيرة توضع فوق الحرف المتحرك بها..هكذا «ـُـ».

- والكسرة: ياء صغيرة ممدودة إلى الخلف توضع تحت الحرف المتحرك بها.. هكذا «ـِـ».

٢- أضاف علامات جديدة إلى ما وضعه أبو الأسود.. فجعل:

- للسكون الشديد -وهو ما يصاحب الإدغام-: رأس «شين» بغير نقط هكذا (ّ)، ولعله أخذها من أول حرف في كلمة «شديد»[١].

- للسكون الخفيف: رأس حرف «خاء» بدون نقط هكذا «حـ» ولعله يريد بها الحرف الأول من كلمة «خفيف».

- للهمزة: رأس عين هكذا (ء) لقرب الهمزة من العين في المخرج.

---

(١) هذا هو مذهب الخليل وسيبويه وعامة أهل المشرق، أما أهل المدينة والأندلس فكانوا يرمزون للتشديد بحرف (د). (المحكم: ٤٩، ٥٠).

- ولألف الوصل: رأس صاد هكذا (صـــ).

- وللمد الواجب: ميما صغيرة مع جزء من «الدال» هكذا (مـــد)

وبهذا العمل الجليل من الخليل أمكن كتابة القرآن منقوطا نقط إعجام ومشكولا بمداد واحد دونما لبس أو خلط بينهما، ولم يعد الكُـتَّاب في حاجة إلى مدادين أو أكثر أثناء الكتابة..

وقد كتب لعمله هذا الثبوت والبقاء ولكن بإضافة تحسينات طفيفة مثل:

١- حذف جزء من رأس الياء المجعول علامة للكسرة.

٢- حذف رأس الميم من علامة المد.

٣- جواز كتابة الضمتين في التنوين على أصلهما أو بزيادة الثانية على الأولى.

٤- جواز بقاء الكسرة أسفل الحرف أو أعلاه تحت الحرف المشدد أو بمصاحبة الهمزة.

وسمي عمله هذا «بالشكل»؛ لأنه أزال ما في المكتوب من إشكال وإبهام عند النطق.. قال أبو حاتم: «شكّلت الكتاب، أشكلته، فهو مشكول: إذا قيدته بالإعراب[1]».

كما يلاحظ أن عمل الخليل هذا إنما هو تطوير بارع لنقط أبي الأسود «الإعرابي» فقد حوله من نقاط يختلف مدادها وأوضاعها بحسب أصوات حروفها، إلى حركات محددة ومميزة، ولذلك قال أبو بكر بن محمد بن مجاهد

(١) لسان العرب: (شكل).

(ت:٣٢٤هـ): «والشكل والنقط شيء واحد، غير أن الفهم يسرع إلى الشكل أقرب مما يسرع إلى النقط، لاختلاف صورة الشكل واتفاق صورة النقط، إذ كان النقط كله مدورا، والشكل فيه: الضم والكسر والفتح والهمز والتشديد بعلامات مختلفة، وذلك كله مجتمع في النقط[١]».

وحرصا من الخليل على كرامة أبي الأسود واحتراما لعمله واتقاء للبدعة في الدين استعمل اختراعه هذا في كتب الأدب واللغة دون القرآن[٢] لكنه ما لبث أن استعمل في القرآن حتى أصبح خلو النص الكريم من الشكل عيبا يوصم به الكاتب، على حين انحسر الشكل في الكتابة العادية إلى الأحرف الملتبسة وأواخر الكلم في الغالب.

وباختراع النقط والشكل استطاع المسلمون أن يحصنوا لغة القرآن المكتوبة بسد منيع يحول دون الوقوع في الخطأ. ولم يبق إلا ضبط الكلمة عند النطق دون اعتماد على المكتوب وهو ما تكفل به علم «العربية».

المؤلفات فيهما:

ولأهمية هذا النوع ألف العلماء فيه فكان أول من نسب إليه كتاب في النقط أبو الأسود الدؤلي (٦٩هـ)[٣] ثم تلاه الخليل (١٧٥هـ)[٤] ثم الإخوة الثلاثة

---

(١) المحكم: ٢٣.

(٢) تاريخ الأدب: ٩٧.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء: ٤١، والمحكم: ٤، ٩، ولم يجزم بذلك وقد عده ابن الأنباري مختصرا في النحو: نزهة الألباء: ٩.

(٤) الفهرست: ٣٥، المحكم: ٩.

أبو إسحاق إبراهيم (٢٢٥هـ) وأبو عبدالله محمد (ت: ٢٢٧هـ) وأبو عبدالرحمن عبدالله (ت: ٢٣٧هـ) أبناء يحيى بن المبارك اليزيدي. وأبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزيادي (ت: ٢٤٩هـ) وأبو عبدالله محمد بن عيسى الأصبهاني (ت: ٢٠٣هـ) وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت: ٢٥٥هـ) وأبو حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت: ٢٨٢هـ)..

فهؤلاء عشرة من العلماء قد توافروا على التأليف في النقط والشكل خلال القرنين الثاني والثالث فقط، وأما علماء القرن الأول فلم يصنفوا فيه، سوى ما نسب لأبي الأسود من مختصر في النقط، وذلك لما أشرنا إليه من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يتحرجون من النقط بل ينهون عن استعماله، ولذا لم يعد أن يكون عملهم محاولات تيسيرية فحسب، فلما جاء جيل التابعين اخترعت له القواعد والأصول حتى قيل عن الخليل «إنه أول من صنف النقط، ورسمه في كتاب، وذكر أحكامه وعلله» نظرا لأهمية العمل الذي قام به.

ثم توالت المؤلفات بعد القرن الثالث حتى جاوزت العشرة إلا أنه لم يصل منها سوى كتاب أبي عمرو الداني (ت: ٤٤٤هـ) المسمى (المحكم في نقط المصاحف) الذي نقل لنا آراء العلماء السابقين وذكر مؤلفاتهم[1].

---

(١) انظر: الفهرست: ٥٣، إنباه الرواة: ١/١٦٧، ٣٤٦/ ٢٩٥، والمحكم: ٩، ٢٣، ومعجم الأدباء: ١/١٦١، ١١/٧٥، ٢٠/٣٠.

المبحث الثاني: الدراسة الصوتية

عني اللغويون القدامى بـ «الأصوات» لاتصالها الوثيق بقراءة القرآن الكريم، فمنذ أن انطلقت دعوة الصحابي الجليل: عبدالله بن مسعود ﵁ «جودوا القرآن وزينوه بالأصوات[١]» امتثالا لقول الله عزوجل: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾[٢]، لقيت الاستجابة الكاملة من جميع المسلمين.. واتجه العلماء منهم، بصفة خاصة، إلى توضيح السبل لتجويد القرآن، وبيان الكيفية التي يتم بها تحسين الأصوات، لا سيما عند عدم الضبط بالسماع والاعتماد على المكتوب في المصاحف.. فتطلب ذلك منهم إيلاء الحروف العربية -باعتبارها عنصر الصوت- عناية كبيرة، لمعرفة مخارجها وإدراك صفاتها[٣] وكانت تلك البداية الطبيعية لدراسة الأصوات عند العرب، ثم أضاف علماء النحو والمعاجم -فيما بعد- دروسا جديدة إلى هذا العلم خطت به خطوات جادة إلى الأمام.. غير أن معالجة القدماء للنواحي

---

(١) النشر: ١/٢١٠.

(٢) سورة المزمل: ٤.

(٣) انتقد المحدثون من علماء الأصوات اللغويين القدامى لاقتصارهم على أحد جانبي الأصوات (الصوامت) والاهتمام به، مع عدم الاعتناء بالجانب الآخر (الصوائت) سوى ما ذكروه من حالات المد المختلفة. مما ترتب عليه إغفال دور الحركات الأساسي في البناء الصرفي للكلمة، وعزوا ذلك الخطأ في المنهج إلى؛ نظرية الأصول في تكوين الكلمات العربية مع التأثر الشديد بتطبيق المكتوب على المنطوق. (نظرات في اللغة: ١٧٣- بتصرف).

الصوتية اتسمت بعدم الاستقلال فقد ظلت مبثوثة في مقدمات المعاجم أو بين ثنايا الأبواب النحوية في كتب النحو.

لكن لم تخل الدراسة الصوتية القديمة من معالجة مستقلة لبعض الأصوات؛ كالهمزة فكان أقدم من وصل إلينا خبر تأليفه كتابا مستقلا: عبدالله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت: ١١٧هـ)، الذي نص العلماء على أنه «أول من عمل كتابا في الهمز»[١].

ثم ألف كل من: قطرب بن المستنير (ت: ٢٠٦هـ) والأصمعي (ت: ٢١٣هـ) كتابين في الهمز، وأما أبو زيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ) فقد ألف فيه كتابين هما: كتاب تخفيف الهمز[٢]، وكتاب الهمز[٣]، وظل التأليف في الهمز يعالجه العلماء مستقلا في كتبهم فنجد أنّ أبا عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ) تحدث في ثلاثة أبواب من كتابه (الغريب المصنف) عن الهمز، عالج في الباب الأول بعض ألفاظ مهموزة وفسرها بإيجاز مع نسبة الأقوال إلى أصحابها، ولم يلتزم ترتيبا معينا، وفي الباب الثاني خصّه بالألفاظ التي تهمز ولا تهمز وسردها في ستة أسطر ولم يشرح معظمها لوضوحه، وفي الباب الثالث: ذكر الألفاظ التي لا تهمز وأصلها الهمز في خمسة أسطر

---

(١) المزهر: ٢/٢٠٠.

(٢) لم يصل من هذا الكتاب سوى بضعة أسطر ألحقت بكتابه «الهمز» وتركها المحقق، واكتفى بالإشارة إليها في مقدمة التحقيق (الهمز: مقدمة المحقق: ٣، المعجم العربي: ١/١١٧).

(٣) وصل هذا الكتاب إلينا وطبع بتحقيق الأب أويس شيخو في بيروت سنة ١٩١٠م.

تقريبا واستشهد ببعض الأقوال معزوة إلى أصحابها[١].

وختم ابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ) كتابه (الألفاظ) بباب تناول فيه ألفاظا مهموزة تكلم بها العرب غير مهموزة، وذلك للاتباع، ومثل لذلك بجمل من القرآن والحديث وأقوال العرب والشعر[٢].

وخصص ابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) ثلاثة أبواب من كتابه (أدب الكاتب) الهمز، عالج فيها بعضا مما عالجه ابن السكيت، ولكن في إيجاز، حتى أ نه لم يفسر كثيرا منها[٣].

و لم تقتصر جهود العلماء المتقدمين على دراسة حرف (الهمزة) فقط -وإن كانوا قد اختصوه بعناية كبرى- بل تعدته إلى سائر الحروف العربية، فوضحوها، وبينوا مخارجها، ورتبوها صوتيا بحسب تلك المخارج، وفصلوا الحديث عن مخارج الأصوات مصنفين كل صوت بحسب المكان الذي يتم فيه التحكم في الهواء الخارج من الرئتين، وقسموا الأصوات، بعد أن ذاقوها، إلى مجهورة ومهموسة، وشديدة ورخوة بحسب جريان الصوت في مجرى النفس، وإلى صحيحة ومعتلة بحسب اتساع المخرج وعدمه، واهتدوا إلى سمات خاصة تميز بعض الحروف عما عداها، وتحدثوا عن ائتلاف الحروف وكيفية بناء الحروف العربية، وعن الانسجام الصوتي في بعض الكلمات ذات الحروف المتتابعة والمختلفة في

---

(١) الغريب المصنف: ٥٤٨-٥٥١.

(٢) تهذيب الألفاظ: ٦٧٢.

(٣) أدب الكاتب: ٢٨١- ٢٨٦.

الصفات نحو (يزدق) في بعض اللغات –بدلا من (يصدق)- وذلك ليكون عمل اللسان من جهة واحدة[1]، لكنهم لم يفردوها بالتأليف بل جاءت دراستهم تلك ضمن كتب النحو والمعاجم وأهم من قام بذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأبوبشر عمرو بن عثمان الملقب بـ(سيبويه)، ونخصهما بمزيدٍ من الحديث فيما يلي:

١- الخليل والأصوات:

تناول الخليل (ت١٧٥هـ) النواحي الصوتية في مقدمة كتابه (العين) في نحو خمس عشرة صفحة، ونستخلص من عمله الآتي:

أ- حَصَر الحروف العربية، ووضح مخارجها، ورتبها صوتيا بحسب مخرجها من الحلق فقال: «في العربية تسعة وعشرون حرفا: منها خمسةوعشرون حرفا صحاحا لها أحياز ومخارج، وأربعة هوائية[2]».

فالحروف الصحيحة –حسب ترتيبه الصوتي- هي: ع ح هـ خ غ - ق ك – ج ش ض- ص س ز- ط د ت – ظ ذ ث – ر ل ن – ف ب م.

والحروف الهوائية هي: وا ى ء.

وقد حدّد مخرج كل حرف، وسمي كل مجموعة صوتية تخرج من حيز واحد باسم خاص ظلّ متعارفا عليه إلى عصرنا الحديث –بل قلده فيه كل من جاء بعده[3] – وإليك ما قال: «فالعين والحاء والهاء والخاء والغين (حلقية)؛

---

(١) الأصوات اللغوية: ١٠٤-١٥٣، البحث اللغوي: ٧٢-٨٥.

(٢) العين: ١/٦٤.

(٣) الأصوات اللغوية: ١٠٢.

لأن مبدأها من الحلق. والقاف والكاف (لهويتان)؛ لأن مبدأهما من اللهاة. والجيم والشين والضاد (شجرية)؛ لأن مبدأها من شجر الفم: أي مفرج الفم. والصاد والسين والزاي (أسلية)؛ لأن مبدأها من أسلة اللسان: وهي مستدق طرفه. والطاء والدال والتاء (نطعية) [١]؛ لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى. والظاء والذال والثاء (لثوية)؛ لأن مبدأها من اللثة. والراء واللام والنون (ذلقية)؛ لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفي ذلق اللسان. والفاء والباء والميم (شفوية) وقال مرة (شفهية)؛ لأن مبدأها من الشفة. والواو والياء والألف والهمزة (هوائية)؛ لأنها لا يتعلق بها شيء[٢]».

ب- تحدث عن صفات بعض الحروف مثل (ر ل ن، ف ب م):

فالثلاثة الأحرف الأولى سماها حروف الذلق أو الذلاقة» لأنها تخرج من ذلق اللسان أي بطرف أسلته[٣]. وألحق بها الثلاثة الباقية، وسماها بالحروف «الشفوية»؛ لأن مخرجها من بين الشفتين خاصة، وبين أن الشفتين لا تعمل في شيء من الحروف الصحاح إلا في هذه الثلاثة فقط[٤].

ج- نبه على أن حروف الذلاقة الستة أسهل الحروف في النطق فكثرت في أبنية الكلام، ولذلك لا يخلو أي بناء رباعي أو خماسي منها أو من بعضها فإن جاء بخلاف ذلك فهو كلمة محدثة مبتدعة ليست في كلام

---

(١) جاء في القاموس: النطع «ن ط ع: ما ظهر من الغار الأعلى فيه آثار كالتحزيز».

(٢) العين: ١/٦٥.

(٣) العين: ١/٥٧.

(٤) نفسه: ١/٥٧.

العرب[١]، واستثنى من البناء الرباعي عشر كلمات شذت عن هذه القاعدة[٢]، وسوغ خلوهن من حروف الذلاقة اشتمالهن على حرفي (العين والقاف) أو أحدهما؛ لأن هذين الحرفين «لا يدخلان في بناء إلا حسناه، لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرسا[٣]»، وكذلك يفتقر في الرباعي أيضا، خلوه من حروف الذلاقة إذا كان حكاية للصوت، سواء كان مضاعفا بتكرار المقطع نحو (دقدق)، أو كان مؤلفا من غير تكراره نحو (دهداق)»[٤].

٢- سيبويه والأصوات:

تلا سيبويه أستاذه الخليل، فلخص في آخر (الكتاب) جملة من الآراء الصوتية المستفادة من الخليل، وأضاف إليها جديدا نعرض له -بإيجاز- دون الخوض في الشرح أو المقارنة بالآراء الصوتية الحديثة؛ لأن ذلك سيخرجنا عن منهجنا الوصفي، ولأن من شرحها من شراح الكتاب كالسيرافي والرماني لم يزيدوا شيئا بل اكتفوا بترديد عبارات سيبويه بألفاظه ومصطلحاته[٥] حيث:

---

(١) العين: ١/٥٨.

(٢) العين: ١/٥٩.

(٣) العين: ١/٦٠.

(٤) العين: ١/٦١.

(٥) الأصوات اللغوية: ١٠٥.

أولا: قسم الأصوات الحلقية ثلاثة مخارج، وعين حروف كل مخرج؛ فمن أقصى الحلق: الهمزة والهاء والألف، ومن وسط الحلق: العين والحاء، ومن أدنى الحلق: الغين والخاء[١].

ثانيا: قسم أصوات الفم إلى مناطق، وحدد لكل منطقة مجموعة صوتية ذات مخرج معين[٢]: فحروف أقصى اللسان مع ما فوقه من الحنك الأعلى: القاف ثم الكاف. ومخرجه من أسفل موضع القاف.

وحروف وسط اللسان مع وسط الحنك، وهي: الشين والجيم، والياء (التي ليست مدا) ثم قسّم الحروف الأخرى عدّة مناطق كما يلي:

أ- أصوات تتكون من التقاء حافة اللسان بأول الحنك الأعلى وهي: الراء، واللام، والنون.

ب- أصوات تتكون من التقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وهي: التاء والدال، والطاء.

ج- أصوات تتكون من التقاء طرف اللسان بالثنايا من الداخل وهي: السين، والصاد، والزاي.

د – أصوات تتكوّن من التقاء اللسان بأطراف الثنايا، وهي: الثاء، والذال، والظاء.

---

(١) الكتاب: ٤٣٣/٤.

(٢) نفسه: ٤٣٣/٤.

هـ- صوت يتكوّن من التقاء حافة اللسان وما يليها من الأضراس، وهو: الضاد.

وحروف الشفتين وهي: الفاء والباء والميم والواو (التي ليست مدا).
وحرف الغنة، وهو النون الخفيفة.

ثالثا: وصف بعض الأصوات بصفات اختصت بها وأطلق عليها (صفات الحروف)[١]:

فوصف (اللام) بأنها حرف منحرف من حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان؛ وقد جرى فيه الصوت بانحراف اللسان معه، ووصف (الراء) بأنها حرف مكرر، ووصف (الشين) بالتفشي، ووصف حروف (الصاد والضاد والطاء والظاء) بأنها: مطبقة. و(النون) بأنها من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا.

رابعا: قسم الحروف (الأصوات) جميعا إلى: مجهورة ومهموسة، ثم قسمها مرة أخرى إلى: شديدة ورخوة ومتوسطة، وحدد حروف كل من كل قسم منها[٢]:

فالمجهور: «حرف أشبع الاعتماد في موضعه، ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت[٣]» وحروفه هي: الهمزة،

---

(١) الكتاب: ٤/٤٣٥.

(٢) الكتاب: ٤/٤٣٤

(٣) الكتاب: ٤/٤٣٤.

والألف، والعين، والغين، والقاف، والجيم، والياء، والضاد، واللام، والنون، والراء، والطاء، والدال، والزاي، والظاء، والذال، والباء، والميم، والواو. والمهموس: «حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه[١]» وحروفه هي: الهاء، والحاء، والخاء، والكاف، والشين، والسين، والتاء، والصاد، والتاء، والفاء.

والشديد: الحرف «الذي يمنع الصوت أن يجري فيه[٢]» وحروفه هي: الهمزة والقاف، والكاف، والجيم، والطاء، والتاء، والدال، والباء.

والرخو: الحرف الذي يسمح بجريان الصوت فيه[٣]، وحروفه هي: الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال، والفاء، أما العين فهي مترددة بينهما[٤].

خامسا: قسم الحروف (الأصوات) إلى: مطبقة ومنفتحة، «فأما المطبقة فالصاد، والضاد، والطاء، والظاء، والمنفتحة: كل ما سوى ذلك من الحروف؛ لأنك لا تطبق لشيء منهنّ لسانك ترفعه إلى الحنك الأعلى»[٥].

---

(١) الأصوات اللغوية: ١٣٥.

(٢) الكتاب: ٤/٤٣٤.

(٣) الأصوات اللغوية: ١٣٦.

(٤) الكتاب: ٤/٤٣٥.

(٥) الكتاب: ٤/٤٣٦.

ومن العجيب حقا أن تأتي الدراسات الصوتية الحديثة موافقة لوصف سيبويه، دون أن يكون له علم بالناحية التشريحية لأعضاء النطق ووظائفها[١]، وهذا من شدة نبوغه وفرط ذكائه.

وقد خالف سيبويه أستاذه في ترتيب الحروف، ويتبين ذلك للباحث بالموازنة بين الترتيبين:

*فترتيب الخليل هكذا: ع ح ه خ غ. ق ك. ج ش ض. ص س ز. ط د ت. ظ ث ذ. رل ن . ف ب م . واى ء[٢].

* وترتيب سيبويه هكذا: ء ا ه ع ح غ خ ك ق ض ج ش ى ل ر ن ط د ت ص ز س ظ ث ف ب م و[٣].

ومع وضوح هذه الدراسة من عالمين فذين في مجال الأصوات، فإنها لم تسقل بمؤلف وإنما جاءت تبعا للنحو أو المعاجم، ولذا فإننا نستطيع القول بأن «علم الأصوات قد استقل دراسة ضمن الكتب ذات الصلة الوثيقة به في القرن الثالث، لكنه لم يستقلّ تأليفا إلا في القرن الرابع على يد ابن جني (٣٩٢هـ) في كتابه الصوتي الفريد: (سر صناعة الإعراب) إذ هو أول من أفرد المباحث الصوتية بمؤلف مستقل[٤]».

---

(١) الأصوات اللغوية: ١٢٦.

(٢) النقط فاصل بين كل مدرجة وأخرى.

(٣) الكتاب: ٤/٤٣١.

(٤) البحث اللغوي: ٧٧.

على أن ابن النديم[١] ذكر أن هناك مؤلفات مستقلة في الأصوات قبل ابن جني كانت تحمل (الأصوات) ككتاب قطرب (ت: ٢٠٦هـ) والأخفش: (ت: ٢١١هـ) والأصمعي: (ت٢١٣هـ) وابن السكيت (ت: ٢٤٤هـ) وابن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ) .. ولما كانت هذه كتب مفقودة لم تصل إلينا فإننا لا نستطيع القطع بمادتها اللغوية، فمن المحتمل أن تكون حكاية لأصوات الطبيعة والحيوانات وهو مما لا تعنى به الدراسة الصوتية.

---

(١) الفهرست: ٧٨، ٧٩، ٨٣، ١٠٨.

المبحث الثالث: الدراسة النحوية

قام علماء اللغة، حفاظا على لغة التزيل، بوضع أسس عامة وقواعد منضبطة لأساليب العرب ومجاري كلامهم، بعد أن تم لهم جمع اللغة وتدوينها تعنى بضبط أواخر الكلمات العربية وتصحيح أبنيتها.

وأطلق على هذا اللون من الدراسة مصطلح «النحو والصرف» بعد أن أصبحا علمين مميزين لهما ضوابط وقواعد، وأول ما ورد ذلك على لسان الخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ) ويونس بن حبيب (ت: ١٨٢هـ)، أما من قبل فكانت تعرف بعلم «العربية» أو «الإعراب[١]».

ولارتباطهما الوثيق بالقرآن الكريم في النشأة والتطور، نتحدث عنهما -فيما يلي- نشأة وتطورا وأثرا في ضبط اللغة وصونها عن الخطأ:

أ- الدافع إليها:

لم يقتصر الزيغ الذي طرأ على ألسنة العرب عند حدود الكلام العادي بل تجاوزه إلى القرآن الكريم، الأمر الذي أفزع العلماء والولاة وجعلهم يخشون من تحريف قد يزداد مع توالي العصور فلا يستطيعون رده فيلحقهم بذلك إثم كبير لإهمالهم في صيانة كتاب الله، وقد أشرنا من قبل إلى أنموذج للّحن في تلاوة القرآن[٢] نضيف إليه ما يلي:

---

(١) أخبار النحويين: ١٣، وطبقات ابن سلام: ١٢/١.

(٢) انظر ص: ١١٥.

روي أن أعرابيا سمع أبا الحسن يقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا[1]﴾ «ولا تنكحوا...» بفتح التاء بدل ضمها، فقال الأعرابي: سبحان الله! هذا قبل الإسلام قبيح، فكيف بعده؟ قيل: إنه لحن، والقراءة «ولاتُنكحوا» بالضم، فقال: قبحه الله، لا تجعلوه بعدها إماما فإنه يحل ما حرم الله، وقيل: إن ابن جابان علّق على ذلك فقال: «وإن آمنوا أيضا لم ننكحهم[2]».

وروي أن أعرابيا قَدِم في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فقال: من يقرئني شيئا مما أنزل الله تعالى على محمد ﷺ فأقرأه رجل سورة «براءة» فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾[3] بالجر، فقال الأعرابي: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله برئ من رسوله فأنا أبرأ منه. فبلغ عمر مقالة الأعرابي فدعاه. فقال: يا أعرابي، أ تبرأ من رسول الله ﷺ، فقال: يا أمير المؤمنين، إني قدمت المدينة، ولا علم بالقرآن، فسألت من يقرئني، فأقرأني هذا سورة «براءة فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِ﴾ (بالجر)، فقلت: أو قد برئ الله من رسوله؟ إن يكن الله تعالى برئ من رسوله فأنا أبرأ منه.

فقال عمر رضي الله عنه: ليس هكذا يا أعرابي. فقال: كيف هي يا أمير المؤمنين؟ فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالضم. فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ

---

(١) سورة البقرة، آية ٢٢١.

(٢) البيان والتبيين: ٢/٢١٩.

(٣) سورة التوبة: ٣.

ممن برئ الله ورسوله منهم، فأمر عمر ﷺ أن لا يقرئ القرآن إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع النحو[١]. وأورد هذه القصة ابن جني في الخصائص[٢]، ولكنها وقعت مع الإمام علي بن أبي طالب ﷺ إذ هو الآمر بالوضع لا عمر كما في رواية ابن الأنباري.

وروى الأصمعي قال: «سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: جاء أعرابي إلى علي ﷺ فقال: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، كيف تقرأ هذه الحروف: «لا يأكله إلا الخاطون»، كلنا والله يخطو، فتبسم أمير المؤمنين ﷺ وقال: يا أعرابي: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[٣] قال: صدقت والله يا أمير المؤمنين، ما كان الله ليظلم عباده، ثم التفت أمير المؤمنين إلى أبي الأسود الدؤلي، فقال: إن الأعاجم قد دخلت في الدين كافة. فضع للناس يستدلون به على صلاح ألسنتهم، ورسم له الرفع والنصب والخفض[٤]».

وروى الجاحظ أن الحسن البصري لحن في القرآن في موضعين:

فقرأ خطأ: (ص، والقرآن –بضم–، وما تنزلت به الشياطون – بالواو بدلا من الياء)[٥].

---

(١) نزهة الألباء: ٨، ٩.

(٢) الخصائص: ٢/٩.

(٣) سورة الحاقة: ٣٧.

(٤) الزينة: ٧٢.

(٥) البيان والتبيين: ٢/٢١٩، والقراءة الثانية منسوبة إليه في النشر ٢/٣٦ وغيره

ب- نشأتها:

إن هذا اللحن المتفشي في الألسنة العربية والخوف منه على لغة القرآن، دفع العلماء إلى أن يفكروا في وضع ضوابط لسانية تعصم الأفواه من الوقوع في الخطأ، فهداهم تفكيرهم إلى وضع علم «العربية».

ويختلف العلماء اختلافا شديدا في السابق إلى هذا الوضع، نظرا لوجود روايات متعددة عن القدماء تختلف فيما بينها في تحديد واضع هذا العلم، فيقول بعضها: إنه أبو الأسود الدؤلي (ت: ٦٩هـ)[١]، وتقول طائفة أخرى: إنه عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت: ١١٧هـ) وتقول ثالثة: إنه نصر بن عاصم (ت: ٨٩هـ)[٢].. وإلى كل رواية يصير قوم، والذين يقولون: بأنه أبو الأسود، ينقسمون على أنفسهم، فمنهم من يرى أنه استقل بوضعه ومنهم من يرى أنه أتم وضعه بإشارة من الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٣] وآخرون يقولون: بل الذي أشار به على أبي الأسود الخليفة عمر بن الخطاب[٤]. ويعتمد كل منهم على رواية أو أكثر تعزز مذهبه.

ولورود هذا التناقض بين الروايات وعدم إمكانية الجمع بينها ذهب بعض المستشرقين ووافقهم بعض المحدثين إلى النحو العربي من وضع غير

---

(١) طبقات النحويين: ١٣، مراتب النحويين: ٢٤، إنباه الرواة: ١/٧، الفهرست: ٦٠.

(٢) نزهة الألباء: ١٠، الفهرست: ٥٩.

(٣) طبقات النحويين واللغويين: ١٣، الإصابة: ٢/٢٤١.

(٤) نزهة الألباء: ٨.

العرب؛ من الآرميين والفرس والسريان واليونان ثم نقل إلى بلاد العرب.

وممن قال بذلك: ليتمان، فون كريمر، وجورجي زيدان، ومصطفى نظيف[١]. وتوسط الأستاذ أحمد أمين بين الفريقين فقال: لا ننكر أن نسبة النحو إلى أبي الأسود لها أساس صحيح إذ أن الرواة يكادون يتفقون على أن أبا الأسود قام بعمل من هذا النمط وأنه ابتكر شكل المصحف بالنقط، لكنه لم يصدق بما روى عن أوليات هذا الوضع؛ من أن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) دفع إلى أبي الأسود رقعة مكتوبا فيها: «الكلام اسم وفعل وحرف... وأن الأسماء ثلاثة ظاهر ومضمر واسم لا ظاهر ولا مضمر..»

ثم استكمل أبو الأسود وضع «أبواب: العطف، النعت، التعجب، والاستفهام، إن وأخواتها ما خلا لكن»، فلما عرضه على «علي» أمره بضم «لكن» إليها، وكلما انتهى من شيء عرضه عليه حتى اكتملت أبوابه، وعلل ذلك بأن طبيعة زمن علي وأبي الأسود تأبى هذه التعاريف وهذه التقاسيم الفلسفية، وأن الاصطلاحات النحوية لم تظهر إلا في وقت متأخر عن أبي الأسود وعلي، ورأى أن أبا الأسود الدؤلي هو الواضع الأول للنحو بطريقة بدائية خالية من الموضوعات المبوبة والتقسيمات الفلسفية[٢].

والذي يهمنا -في هذا المبحث- هو إثبات العلاقة الوثيقة بين القرآن

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية: ٢/١١٥، وينظر: محاضر جلسات المجمع اللغوي بالقاهرة: ٧/٢٤٨، لعام ٤٨/١٩٤٩م.

(٢) ضحى الإسلام: ٢/٢٨٥ وما بعدها.

الكريم ونشأة هذا العلم، وأنه بسبب الخوف على القرآن من اللحن بدأت أولى الخطوات في وضعه ثم استكملت –بعد– قواعده، بطريقة علمية منظمة، توافر عليها عدد غير قليل من العلماء الذين عنوا بالدراسة النحوية حتى أثمرت لنا كتبا قيمة يسطع في سمائها كتاب العربية الخالد «كتاب سيبويه».

وعلى الرغم من أن موضوع الدراسة لا يتأثر كثيرا بتحقيق واضع العلم والجزم به على سبيل القطع واليقين، فإننا لن نمرّ على هذه المعركة الخلافية دون أن ندلي برأي فيها نعتقد أنه صواب.

والواقع أننا حين رجعنا إلى كتب التراجم القديمة والقريبة من عصر أبي الأسود، وجدنا أنها تكاد تجمع على أنه الواضع الأول والمؤسس لهذا العلم، ولكن أصحابها يختلفون فيما بينهم هل استقل وحده بالوضع؟ أو شاركه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه في ذلك، ونسوق فيما يلي أقوالهم:

١- محمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣٢هـ) قال: «وأول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع قياسها أبو الأسود الدؤلي[١]».

٢- أبو العباس محمد بن يزيد المبرد (ت: ٢٨٥هـ) قال: «أول من وضع العربية ونقط المصاحف أبو الأسود، وسئل عمن أرشده إلى الوضع في النحو فقال: تلقيته عن علي[٢]..».

(١) طبقات الشعراء: ١٢.

(٢) طبقات النحويين واللغويين: ١٣، الإصابة: ٢/٢٤١.

٣- أبو الطيب اللغوي (ت: ٣٥١هـ) قال: «كان أول من رسم النحو أبو الأسود الدؤلي.. أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.. وكان أعلم الناس بكلام العرب، وأبو الأسود أول من نقط المصاحف واختلف الناس يتعلمون العربية وفرع لهم ما كان أصله»[١].

٤- أبو سعيد السيرافي (ت: ٣٦٨) قال: «أول من وضع العربية أبو الأسود الديلي»[٢].

٥- محمد بن إسحاق النديم (ت: ٣٨٠هـ) قال: «زعم أكثر العلماء أن النحو أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، وأن أبا الأسود أخذ ذلك عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب»[٣].

٦- القفطلي (ت: ٦٤٦) قال: «إن أبا الأسود هو أول من استنبط النحو وأخرجه من العدم إلى الوجود، وأنه رؤي بخطه، فاستخرجه ولم يعزه إلى أحد ممن قبله»[٤].

فهؤلاء ستة من الأعلام يؤكدون صحة ثبوت هذه النسبة إلى أبي الأسود في عدة روايات، وإن كان بعضهم يميل إلى استقلال أبي الأسود بالوضع، على حين يرى الآخرون مشاركة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه له في البدء أو الإيعاز.

---

(١) مراتب النحويين: ٢٤.

(٢) أخبار النحويين البصريين: ١٣، والديلي لغة أهل الحجاز في النسبة «الدئل». (نفسه: ٦١).

(٣) الفهرست: ٥٩.

(٤) إنباه الرواة: ١/٧.

ولست أجد في الروايات ما يرجح إحداهما على الأخرى غير أني إذا أمعنت النظر في الموضوع وملابساته، وجدتني أميل إلى ترجيح وضع أبي الأسود للنحو وحده، ولم تكن ثمة حاجة إلى إشارة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وتحديد موضوعات معينة له؛ لأن أبا الأسود رجل موهوب يمتاز بغزارة علمه إلى جانب تقواه وصلاحه، وغيرته على المحافظة على كتاب الله عز وجل، حتى لو كانت هناك إشارة من أمير المؤمنين علي، فإنها لا تكون بتوجيهات تتصل بعلمه وعمله.

وأستثني من الروايات ما فيه خلاف صريح لما سجله التاريخ وأعتبره خطأ تاريخيا يجب تصحيحه وعدم الثقة به.. كرواية صاحب نزهة الألباء[١] التي تقول: إن عمر بن الخطاب ﷺ هو الذي أمر أبا الأسود وليس علي بن أبي طالب ﷺ، ووجه الخطأ في هذه الرواية: أن عمر بن الخطاب لم يفد إلى العراق زمن الإسلام، والنحو إنما نشأ في العراق بعد الفتح الإسلامي بإجماع المؤرخين.

هذا من جهة النقل، أما من جهة العقل فما الذي يمنع عالما فذا ذا عقلية مبتكرة بحرصه الشديد على القرآن ولغته[٢] قام بضبط المصحف الشريف عن طريق النقط –كما أشرنا– ثم لا يؤسس قواعد عامة في

(١) نزهة الألباء: ٨..

(٢) أبو الأسود الدؤلي: ٧٠.

الأساس الذي ضبط القرآن به؟ و لم لا يكون عمله ذلك هو أساس تفكيره في وضع الجذور الأولى للنحو العربي؟!

ج- تطورها:

لم يتوقف الأثر القرآني بظهور بوادر هذا العلم على يدي أبي الأسود بل استمر مع العلماء يحثهم على درء الخطر بمتابعة استكمال قواعده وتحديد ضوابطه، يقول ابن خلدون «وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا ويطول العهد بما يتعلق به القرآن والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة الكليات والقواعد يقيسون عليها سائر الكلام..[1]» وهكذا ظل تأثير القرآن ملازما للنحو وعلمائه في جميع مراحله التي مر بها، يوحى إليهم باتخاذ القرآن منارا يهتدون به في صناعة قواعدهم وضبط آرائهم، وميزانا يحكمون به على صحة نظرياتهم إلى أن تم نضجه واستوى على سوقه[2].

و لم يكد أبو الأسود الدؤلي ينتهي من وضع القواعد الأولى لهذا العلم حتى بدأ تلاميذه: نصر بن عاصم (ت: ٨٩هـ) وعنبسة الفيل (ت: ١٠٠هـ تقريبا) وميمون الأقرن (ت: ٩٩هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز (ت: ١١٧هـ) ويحيى بن يعمر (ت: ١٢٩هـ) بمدارسة هذه القواعد من بعده، والإضافة إليها بطريق

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٥٤٦.

(٢) أثر القرآن في النحو العربي: ٦٧.

الاستنباط، وتوسيع المسائل، ونشرها بين الناس خدمة للعربية لغة التتريل، ووظفوا ما تعلموه من قواعد سهلة في خدمة الكتاب العزيز، والرد بها على من يلحن فيه؛ فهذا أحدهم: «يحيى بن يعمر» يراقب الحجاج بن يوسف في صحة نطقة ثم ينتقده، فلما علم الحجاج بذلك سأله: «أتسمعني ألحن؟ فقال له يحيى: نعم، في حرف واحد. قال: في أي؟ قال: في القرآن، قال الحجاج: ذلك أشنع، ثم قال له: ما هو؟ قال: تقول: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَاۤؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[١] فتقرأ (أحب) بالرفع قال الحجاج: لا جرم أنك لاتسمع لي لحنا بعد هذا، ثم ألحقه بخرسان[٢]».

وواضح من هذا أن العمل النحوي في هذه الفترة قد اقتصر على تناقل آراء أبي الأسود وإذاعتها بين الناس عن طريق الحفظ في الصدور والرواية على الألسنة، والاكتفاء بتهجين اللحن وذم اللحانين واعتباره هجنة للشريف ومانعا له من بعض حقوقه[٣].. ولقرب عهد القوم بسلامة السليقة لم يؤثر أن أحدًا منهم ألف كتابا في هذا الفن سوى ما نسب إلى

---

(١) سورة التوبة: ٢٤.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ١٣، أخبار النحويين البصريين: ١٨.

(٣) البيان والتبيين: ٢/٢١٦.

أبي الأسود من وضعه «مختصرا في النحو»[١]. فلما جاء عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت: ١٢٩هـ) «أول من بعج النحو ومد القياس، وشرح العلل[٢]» وزميلاه: عيسى بن عمر الثقفي (ت: ١٤٩هـ)، وأبو عمر بن العلاء (ت: ١٥٤هـ) نشط البحث في المجال النحوي، وقامت على أيديهم أولى حركات التعليل والقياس، لكنها لم تتسع كثيرا بل ظلت متداخلة مع علوم الأدب واللغة ممتزجة بهما، موافقة لروح العصر العباسي الأول الذي نمت فيه أكثر العلوم العربية[٣].

أما التأليف في «النحو» فقد تم لأول مرة على يد عيسى بن عمر الثقفي في كتابيه (الجامع والإكمال).. وقد وصل إلينا ذكرهما على لسان الخليل حين قال:

ذهب النـــــحو جمـــــيعا كله   غير ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك «إكــــمال» وهذا «جامع»   فهـــما للناس شمس وقمر[٤]

ولا نعلم شيئا عن حالهما لفقداهما منذ زمن طويل[٥]، و لم يتعرض لهما أحد من القدماء بالوصف أو النقل سوى هذا الثناء من تلميذه الخليل.

---

(١) الشعر والشعراء: ٧٣٣/٢، ونزهة الألباء: ٩.

(٢) طبقات فحول الشعراء: ١٤.

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية: ١٨.

(٤) المزهر: ٣٩٩/٢ وما بعدها وسمي الثاني: «المكمل».

(٥) الفهرست: ٦٣.

وبنبوغ الخليل بن أحمد (ت: ١٧٥هـ) في البصرة، وظهورا الرؤاسي في الكوفة، وثب النحو وثبة قوية إلى الأمام دخل بها مرحلة جديدة من مراحل تطوره تم فيها، ولأول مرة، اشتراك المصرين (البصرة والكوفة) في النهوض به، فقام العلماء باسقراء المأثور عن العرب، يقعدون القواعد ويسببون العلل، واشتد بينهم التنافس الذي أدى إلى ظهور حركة التأليف الواسعة[١].

وكان السبق للبصرة إذ أخذت بزعامة الدراسات النحوية على يدي أستاذها الكبير: الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي ساح في الجزيرة العربية وشافه الأعراب ثم عاد إلى البصرة ليستخرج مسائل النحو فبلغ الغاية فيها، وصفه الزبيدي بقوله: «وهو الذي بسط النحو ومد أطنابه، وسبب علله، وفتق معانيه، وأوضح الحجاج فيه، حتى بلغ أقصى حدوده، وانتهى إلى أبعد غاياته[٢]..» لكنه لم يترك لنا كتابًا في النحو، واكتفى بتلقين آرائه النحوية لتلميذه النابه: «سيبويه» الذي برّ أقرانه وبرع في النحو وأوتي ملكة التصنيف فألف «الكتاب» على مثال لم يسبق إليه منتفعا فيه بآراء الخليل، وكان الكتاب مثيرا لإعجاب العلماء، مستأثرا باهتمام القراء فلم يؤلف في عصره غيره واكتفى العلماء والدارسون بالطواف حوله شرحا وتعليقا واختصارا.

---

(١) نشأة النحو: ٤٠.

(٢) المزهر: ١/٨ (نقلا عن كتابه استدراك الغلط الواقع في كتاب العين المفقود).

شعرت الكوفة حينئذ باستقلالها فبدأت تناظر البصرة، وكان الخلاف أول ما بدأ هادئا بين الرؤاسي والخليل، ثم اشتد التنافس واحتدم أواره بين الكسائي (في الكوفة) وسيبويه (في البصرة)، وأصبح لكل مدرسة علم ينحاز إليه أهلها ويلتفون حوله ويتعصبون له، فصار كل فريق يسعى جاهدا لإحراز السبق على الآخر، بما يتوفر له من شواهد وأدلة، فكان من جراء ذلك أن انتشر هذا العلم وتفرعت على يد أبي عثمان المازني (ت: ٢٤٩هـ) في كتابه أصوله ، وكثرت المؤلفات فيه غير أن الصرف لم يستقل في كتاب إلا: «التصريف».

وبانتهاء القرن الثالث نضج البحث النحوي، وارتقى التأليف فيه لدرجة لم تسمح بعدها بجديد، حتى سماه المؤرخون طور (النضج الكمال) لتمام أصوله، واستكمال قواعده، وانتهاء الاجتهاد فيه بين الفريقين على يد الإمامين: المبرد (ت: ٢٨٥هـ) خاتم البصريين، وثعلب (ت: ٢٩١هـ) خاتم الكوفيين اللذين كانا آية في العلم في عصرهما، قال أبو عمر الزاهد: «سألت أبا بكر بن السراج (ت: ٣١٦هـ) فقلت: أي الرجلين أعلم: أ ثعلب أم المبرد؟ فقال: ما أقول في رجلين العالم بينهما»[١] ثم التقى العلماء في (بغداد) فانحسر الخلاف وتلاشت النعرة الحزبية القديمة فتمّ خلط المذهبين ونقدهما ثم الانتخاب منهما، وكان أول من فعل ذلك ابن

(١) معجم الأدباء: ١٣٨/٥.

قتيبة (ت:٢٧٦هـ)[(١)].

وهكذا يتبين لنا أن القرآن الكريم لم يكن بمنأى عن هذه الحركة النحوية الصاعدة، بل كان الموجه لسيرها قدما، كما كان الدافع إليها ابتداء، فحفز همم العلماء لخوض مسائل هذا العلم. وقد شجع من نشاطهم في استمرار البحث والتقعيد ما يرونه كل يوم من ازدياد لشيوع اللحن في الألسنة، فبقدر هذا الشيوع يزداد الخوف على القرآن، فيزداد إقبال العلماء على دراسته والتأليف فيه.

وأدل على ذلك من أن المتتبع لآراء أولئك العلماء يجد أن أغلب شواهدهم وقواعدهم كانت تقوم على آيات القرآن الكريم، إذ هي محور الحديث والمناقشة والمناظرة، كما أنها أيضا الدليل القاطع الذي يدعمون به آراءهم.

---

(١) الفهرست: ٧٧.

الفصل الثالث: التفسير اللغوي لألفاظ القرآن

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: التفسير وصلته بعلوم اللغة.

المبحث الثاني: غريب القرآن ولغاته.

المبحث الثالث: معاني القرآن.

المبحث الأول: التفسير وصلته بعلوم اللغة.

يعد التفسير اللغوي لألفاظ القرآن الكريم من أثر القرآن في دراسة اللغة العربية، اتجهت إليه أنظار العلماء مبكرة فواكب حركة التفسير منذ فجر نهضتها، وكان له الأثر البارز في فهم النص القرآني والوقوف على معانيه واستنباط دلالته وأحكامه، لأن جهود العلماء المبذولة لدراسة القرآن الكريم ولغته لم تكن في جملتها إلا من أجل الوصول إلى المعاني التي يتضمنها هذا الذكر الحكيم، لكي تتضح للمسلمين أوامر الدين الحنيف ونواهيه.

وإن جمهور الباحثين[1] ليعدون التفسير اللغوي النواة الأولى لعلم «التفسير» كما يعدّونه، في الوقت نفسه، باكورة المؤلفات الشاملة في علوم اللغة.

ولقد أنزل الله تعالى القرآن باللسان العربي المبين؛ لأن المخاطبين به في وقت نزوله قوم عرب، جاء لدعوتهم للإسلام فلا بد أن يكون بلغتهم التي يفهمونها، ويدركون سرها وبلاغتها، قال تعالى: ﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾[2] أي ليتأتى لهم فهم لفظه، والعمل بشرعه.

---

(١) لمحات في علوم القرآن: ١٤٤.

(٢) سورة إبراهيم: ٤.

لذلك لم يكن لوجود التفسير الشامل حاجة وقت نزول كتاب الله، سوى ما كان يبينه الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه من توضيح لمجمل، أو تعريف بسبب نزول، أو بيان لناسخ أو منسوخ، مما يتصل بالعقائد والأحكام.

أما الأمور اللفظية من مفردات وتراكيب فالقوم يدركون شأنها، وقلّما يتوقفون في فهم المراد منها لأنهم عرب خلص جاء التتريل بلسانهم.

يقول ابن خلدون: «إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه[1]».

وأما ما ورد من استفسارات يسيرة من بعض الصحابة رضوان الله عليهم عن معاني بعض المفردات في القرآن الكريم وإجابة الرسول ﷺ «يا رسول الله: إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب وما نعرفه، وإنا لنحن العرب حقا؟ قال: إن ربي علمني فتعلمت»[2]، فمن المسلم به أن العرب لا يستوون جميعا في فهم القرآن، بل يتفاوتون في مقدرة فهمه واستيعاب معانيه «لأن فهم أي كتاب لا يتطلب اللغة وحدها وإنما يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ودرجة الكتاب في رقيه وهكذا كان شأن العرب أمام القرآن»[3].

ثم تأكدت الحاجة لتفسير القرآن بعد أن اتسعت الرقعة الإسلامية،

---

(١) المقدمة: ٤٣٨.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٤.

(٣) فجر الإسلام: ١٩٦.

وجدت في المجتمع أمور جديدة أفسدت السلائق العربية، وزعزعت الثقة في الملكات اللغوية، فكان لا بد للمسلمين أن يعملوا على فهم كتاب الله تعالى ليصلوا حياتهم بآدابه وأحكامه، ولا سبيل إلى ذلك وقد انقطع الوحي، إلا بالنقل والاجتهاد اللذين عمادهما التفسير اللغوي.

ويعد بيان الرسول ﷺ لما غمض، وتوضيحه لما خفي من ألفاظ القرآن ومعانيه وأحكامه أول خطوة لتفسير القرآن الكريم، يقول ابن تيمية رحمه الله: «يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بيّن لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه. فقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1] يتناول هذا وهذا..»[2].

وهذا موضع اتفاق بين العلماء جميعا؛ إذ إن المفسر الأول للقرآن هو من أنزل عليه القرآن، لكنهم يختلفون في القدر الذي فسره: أهو جميعه أم بعضه؟ والمتتبع للسنة المروية عنه ﷺ يلحظ بوضوح أن النبي ﷺ لم يستعرض آي القرآن تفسيرا كما استعرضها تلاوة، بل كان يتوقف عند اللفظ المشكل في أمور العقائد والغيبيات، أو الحكم الذي يحتاج إلى بيان في قضايا العبادات والمعاملات، وذلك وفق الترتيب النزولي عليه ﷺ، ولا يجاوز ذلك حتى يعلمه أصحابه ويتدارسونه بينهم.

---

(١) سورة النحل: آية ٤٤، وصدر الآية (وأنزلنا إليك الذكر...).

(٢) مقدمة في أصول التفسير: ٣٤.

أما المعاني العامة للقرآن فقد ترك الأمر لمن هو أهل ليفهم من القرآن ما يشاء على حسب وسعه وبمقدار ما آتاه الله من الفهم والإدراك، شريطة أن تتكامل لديه أدوات المفسر المشروعة.

ولذلك صح للمفسرين أن يقدموا على خدمة كتاب الله بتفسير ألفاظه، وحل معانيه واستنباط أحكامه بطرق مختلفة وأساليب متابينة، ومناهج متعددة، ولكنها جميعا تلتقي في مصب واحد؛ لأنها محاولة لفهم هذا الكتاب العزيز.

وبعد انتقال الرسولﷺ إلى الرفيق الأعلى توقف التفسير القطعي لآي القرآن لانقطاع الوحي، ولم يبق إلا التفسير المنقول عنه ﷺ أو تفسير القرآن بعضه ببعض، أما ما عدا ذلك فقد انقسم الصحابة، رضوان الله عليهم حياله فريقين:

أ- فريق آثر السلامة واكتفى بالنقل عما جاء به الرسول ﷺ من التفسير، والتوقف في حدود المسموع عنه، وتحرج من الخوض في كتاب الله تورعا وزهدا، خشية الوقوع في غير المراد ومن ثم يلحقه الإثم، وعملا بقاعدة الاحتياط في أمور الدين.

ومن هؤلاء: أبوبكر الصديق وعمر بن الخطاب وآخرون من كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

يروى عن أبي بكر قوله، حينما سئل عن قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا﴾[١]. أي سماء تظلني، وأي أرض تقلني إن قلت في كتاب الله ما لاأعلم»[٢].

وروى أنس بن مالك: «أن رجلا سأل عمر بن الخطاب عن قوله تعالى: (وفاكهة وأبا)[٣] «: **ما الأبّ؟ فقال عمر: نهينا عن التكلف والتعمق**»[٤].

ب- وفريق آخر أضاف إلى المنقول عن رسول الله ﷺ محاولة فهم القرآن بمقتضى لغة العرب؛ لأنه عربي نزل بلغتهم، فلا شك أن آداب العرب وما ألف منهم في طريقة الكلام تساعد على فهم المراد من القرآن، وهؤلاء جماعة من كبار الصحابة وعلى رأسهم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، و عبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم.. وغيرهم[٥].

وأكثر من نقل عنه في الاستعانة بهذا المنهج حبر الأمة وترجمان القرآن: عبد الله بن عباس رضي الله عنه الذي دعا له الرسول ﷺ بالقفه في الدين وعلم التأويل. ويبدو -مما نقل عنه- أنه حاول تفسير القرآن جميعه، ولذلك كثرت الروايات عنه حتى جمعها الفيروزآبادي فألف كتابا أسماه

---

(١) سورة النساء: آية ٨٥.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ١٨٣.

(٣) سورة عبس: آية ٣١.

(٤) الموافقات: ٢/٦١.

(٥) ضحى الإسلام: ٢/٢٠٢.

«المقباس من تفسير ابن عباس».

غير أنه لا يمكن التسليم بكل ما ورد في هذا الكتاب وبكل ما جاء به من روايات إذ إن الوضاعين قد استغلوا شهرته في هذا الفن فزادوا عليه ما شاءوا يقول الشافعي رحمه الله: «لم يثبت عن ابن عباس في التفسير إلا شبيه بمائة حديث»[١]، ولا أدل على ذلك مما تجده في الكتاب من روايات يناقض بعضها بعضا[٢].

وبالإجمال: نستطيع القول بأن التفسير في عهد الصحابة كان معتمدا على أمور ثلاثة:

١- النقل عن رسول ﷺ ما فسره بنفسه أو وضحه بآيات أخر.

٢- رواية الوقائع والحوادث التي شاهدوها، ويعتمد عليها في تفسير الآية.

٣- الاجتهاد في فهم القرآن والاعتماد على ما سمع من لغة العرب وأساليبهم.

وجاءت الخطوة الثالثة في تفسير القرآن على يدي كبار التابعين أمثال مجاهد وعطاء بن رباح أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وسعيد بن جبير وغيرهم[٣]. فاقتصر جل عمل هؤلاء على ما سمعوه ممن أدركوه من الصحابة من تفسير بالنقل أو الاجتهاد وبعضهم توقف واكتفى بالرواية فقط، وقد تضخم التفسير بالإسرئيليات والنصرنيات لكثرة من دخل في الإسلام من

---

(١) الإتقان: ٢/٢٢٥.

(٢) ضحى الإسلام: ٢/٢٠٣. للفائدة انظر: التفسير والمفسرون: ١/١٥٧.

(٣) ضحى الإسلام: ٢/٢٠٤.

هؤلاء، ولشغف النفوس بسماع تفاصيل حوادث جاءت الإشارة إليها في القرآن؛ كبدء الخليقة وقصة أصحاب الكهف وقصص الأنبياء السابقين.

وتساهل المسلمون في تحقيق ذلك لأنه لا يترتب عليه حكم شرعي، ولما جاءت به السنة جواز الحديث عن بني إسرئيل بلا حرج، وأهم لا يكذبون ولا يصدقون.. وكثرت هذه الروايات كثرة فائقة، فجاء عصر التدوين وسجل معظمها على علاتها ولكن بطريق مسند في الغالب يعرف المتخصص عوره، ولم تكن القيمة كبيرة للغة نفسها، إذ اقتصرت هذه الآثار على توضيح المعنى اللغوي باللفظ الموجز دون تأسيس القواعد أو استنباط الأحكام.

لذلك كله رأينا التفسير لم يدون على نحو جامع إلا بعد مضي النصف الأول من القرن الثاني، وأول من قام بذلك عبد الملك بن جريح (ت: ١٤٩ هـ) لكنه لم يصل إلينا إلا ذكره، وكان أقدم مؤلف وصل تفسيره كاملا أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) المسمى: «جامع البيان في تفسير القرآن» والذي استوفى خصائص التفسير الشامل، واحتوى على منهج متكامل حاز إعجاب الدارسين، وعول عليه من جاء بعده من المفسرين، وبه ختم القرن الثالث.

مصادر التفسير اللغوي:

ويتضح لنا مما سبق أن مصادر التفسير اللغوي تعود في جملتها إلى أمرين أساسيين:

١- التفسير بالنقل: ونعني به كل ما نقل عن النبي ﷺ من روايات

صحيحة كانت أو منسوبة ، والذي صح منها أكثر مما لا يصح، وإن كان المنسوب كثيرا أيضا حتى قال الإمام أحمد: «ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي»[١] وقد وضح مراد الإمام بعض تلاميذه فقالوا: يقصد أنه ليس لها –في الغالب– أسانيد صحاح متصلة[٢]، ولذلك رأينا كثيرا من المفسرين لم يثق بما روى فأتبعه باجتهاده، وماذاك إلا لأنه لا يعتقد صحته في نفسه وإلا لتوقف عند النص و لم يجاوزه.

ويلحق به قول الصحابي أيضا لأنه في منزلة المرفوع إلى النبي ﷺ كما يقول الحاكم[٣]، ذلك لأن الصحابي استمع إلى الرسول وشافهه وشاهد ملابسات الوحي واطلع على كثير منها، يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله إلا هو ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناله المطايا لأتيته»[٤].

كما يلحق به أيضا أقوال التابعين، على القول الراجح، كسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم والحسن البصري ومجاهد وقتادة ومقاتل بن سليمان وعطاء بن أبي سلمة ومحمد بن كعب وعكرمة وغيرهم؛ لأن أقوالهم، في حقيقة أمرها، مستقاة من أقوال الصحابة الأجلاء واستنباطاتهم.

---

(١) البرهان: ١٥٦/٢.

(٢) الإتقان: ٢١١/٢.

(٣) البرهان: ١٥٧/٢.

(٤) نفسه: ١٧٥/٢.

٢- التفسير بالرأي (الاجتهاد): وهو الذي يعتمد فيه المفسر على إعمال فكره وتقليب نظره في الآيات مفردة ومركبة ليعرف مدلولاتها ومراميها، كما يقضي بذلك مطلق اللغة وسنن كلام العرب ومناحيهم في القول، مستعينا فيه بأسباب النزول والملابسات الأخرى التي تتصل بفهم الآية وتعين على استنباط أحكامها.. وهذا منهج شرعي سار فيه بعض أجلاء الصحابة، كما ذكرنا، واعتمدوا عليه في فهم النصّ القرآني، بل أشاد به بعضهم، ورأى أنه منحة ربانية يؤتاها البعض دون غيره: «روى البخاري في صحيحه عن علي ﷺ أنه سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء فقال: ما عندنا غير ما في هذه الصحيفة أو فهم يؤتاه الرجل»[1].

ولعل أول من من اشتهر بذلك وعرف به بين الناس: عبد الله بن عباس، الذي اعتبر بحق رائد هذا المنهج في التفسير وصاحب مدرسته الأولى، ولا غرو فإنما هي استجابة من الله لدعوة خليله لابن عباس ﷺ.

وعن طريق هذا المنهج نستطيع أن نفهم الخلاف الذي وجد بين الصحابة في تفسير بعض الآيات، إذ إنه فهم يؤتاه الرجل وقد أخذ كل بما ظهر له، وقد لقي هذا المسلك قبولا ونال استحسانا من عامة السلف وخاصتهم حتى اعتبر ركيزة هامة لا يمكن تفسير القرآن بدونها، روى البيهقي[2] في شعب الإيمان عن مالك بن أنس أنه قال: «لا أتى برجل غير عالم بلغات العرب يفسر القرآن إلا جعلته نكالا».

---

(١) فتح الباري: ١٧٦/٦.

(٢) الجامع لشعب الإيمان: ١١٩/١.

وثمة ارتباط وثيق بين التفسير واللغة؛ إذ إن البداية تكاد تكون مشتركة فيهما، فهدف كل منهما إيضاح آي القرآن وتجلية معانيه، فالتفسير كان ولا يزال مهتما بهذا الغرض، وإن تعدد فيما بعد بحوثه وتفرعت أغصانه، وكذلك الحال في علم اللغة، فقد بدأ بجمع المفردات وشرحها وتفسيرها «وكانت الغاية الأولى فهم القرآن وشرح ألفاظه، فظهرت مؤلفات كثيرة تجمع المفردات اللغوية... نجد إلى جانبها كتبا في غريب القرآن وغريب الحديث»[(١)].

فالعلاقة بين العلمين وثيقة والرابطة متينة لا تنفك بحال، إذ أنها تقوم على فهم القرآن على وجه الصحيح، ومعرفة خصائص لغة العرب التي بها نزل القرآن. ولذلك حق لبدر الدين الزركشي أن يوجب على المفسر معرفة علم اللغة، حيث قال: «ومعرفة هذا الفن، وهو علم اللغة، للمفسر ضروري، وإلا فلا يحل له الإقدام على كتاب الله تعالى، قال يحيى بن فضلة المديني: سمعت مالك بن أنس يقول: لا أوتى برجل يفسر كتاب الله عز وجل غير عالم بلغات العرب إلا جعلته نكالا. وقال مجاهد: لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب. وروى عكرمة عن ابن عباس قال: **إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر فإن الشعر ديوان العرب**»[(٢)] وقد أحسن الأصوليون صنعا إذ جعلوا معرفة العربية والتمكن منها شرطا أساسيا من شروط

---

(١) فقه اللغة وخصائص العربية: ٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١/٢٩٢.

الاجتهاد في الفقه الإسلامي[١].

وتنقسم التفاسير المتأثرة بالجوانب اللغوية حتى نهاية القرن الثالث قسمين:

الأول: ما يتعلق بمفردات اللغة وشرح ألفاظها، وتعرف بكتب «غريب القرآن ولغاته».

الثاني: ما يتعلق بالتراكيب ومسائل الإعراب، واصطلحوا على تسميته بكتب «معاني القرآن».

ولصلتهما الوثيقة بعلم اللغة، وتأثرهما الشديد بالقرآن، آثرت أن أخصهما فيما يلي بالتوضيح والبيان.

(١) الموافقات للشاطبي: ٤/١١٥.

المبحث الثاني: غريب القرآن ولغاته

أ- غريب القرآن:

الغريب في اللغة: الغامض الذي يخفى معناه على سامعه، بخلاف الواضح الفصيح. قال الزمخشري في أساس البلاغة: «وتقول: فلان يعرب كلامه ويغرب فيه، وفي كلامه غرابة وغرب كلامه، وقد غربت هذه الكلمة: أي غمضت، فهي غريبة»[١].

ولكن هل يعقل أن يكون في الكتاب الذي جاء للإعجاز والتشريع غموض وخفاء على من أنزل عليهم؟ لا يتصور ذلك ولا يمكن أن يكون! ومع هذا فهو استشكال وارد وخير من أجاب عنه إجابة شافية المرحوم مصطفى صادق الرافعي حين قال: «في القرآن الكريم ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة، أو نافرة، أو شاذة، فإن القرآن متره عن هذا جميعه، وإنما اللفظة الغريبة ههنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس»[٢].. وسبب وجوده كما قدمنا، إما لأنه لغة قبيلة فيخفى معناه على أفراد القبائل الأخرى، أو لورود هذه اللفظة على وجه من الاستعمال يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان والصلاة ونحو

---

(١) أساس البلاغة: (غ رب).

(٢) إعجاز القرآن للرافعي: ٧١.

ذلك مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية.

ولم يكن الغريب مستحدثا في عهد التابعين أو العهود التي جاءت بعدهم، بل منذ نزل القرآن وفيه كلمات تحتاج إلى بيان فكان الرسول ﷺ -بما علمه ربه- يقوم بتفسيرها وتوضيحها، إذ هو المفسر الأول لكتاب الله والموضح لأحكامه، بل لقد ورد عنه الاهتمام بغريب القرآن والاعتناء به والحض على فهمه.. أخرج البيهقي من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعا إلى النبي ﷺ أنه قال: «أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه»[١]، ومن الواضح أن إعراب القرآن هنا غير مراد به الاصطلاح النحوي -إذ لم يكن معروفا آنذاك-، ولكن المراد منه معرفة ألفاظ القرآن وفهم معانيه.

كما أن الصحابة رضوان الله عليهم أضافوا إلى ما سمعوا من الرسول ﷺ من تفسير الغريب، ما أعملوا أفكارهم في تفهم ألفاظ القرآن والاستعانة بالشعر العربي على توضيح الغريب منه، وكان رائد الصحابة في هذا المنهج الصحابي الجليل عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، ولم يكن مبتدعا في ذلك بل متأسيا بالمنهاج الذي قرره الرسول ﷺ وأمر به.

روى ابن عباس أن رجلا سأل النبي ﷺ فقال: أي علم القرآن أفضل؟ فقال ﷺ: عربيته. فالتمسوها في الشعر»[٢].

---

(١) الإتقان: ٢/١١٥.

(٢) مقدمتان في علوم القرآن: ٢٦١.

يدلنا على تأسيه بهذا الحديث، صنيعه فيما نقل عنه، وإجابته لمن سأله عن غريب القرآن فقال: «التمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»[(١)].

ونقلت عنه روايات متعددة تدل على أنه كان يستعين بكلام العرب -المنثور منه والموزون- على فهم غريب القرآن فلم يقتصر على الشعر وحده، ومن ذلك[(٢)]: قوله رضي الله عنه : «ماكنت أدري ما قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[(٣)] حتى سمعت ابنة ذي يزن الحميري وهي تقول أفاتحك، تعني أقاضيك».

وقوله أيضا: «ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض، حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها، يعني ابتدأتها».

وجاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس: مافعل فلان؟ قال: مات وترك أربعة من الولد وثلاثة من الوراء. فقال ابن عباس: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[(٤)] الوراء: ولد الولد.

وقد أثار هذا المسلك من ابن عباس رضي الله عنه تساؤلا بين العلماء هل يصح الاستشهاد بالشعر على القرآن، وقد ذم الله الشعر فيه؟ وألا يفسر

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢/٢٩٣.

(٢) للمزيد انظر البرهان: ٢/٢٩٣، والإتقان: ٢/١٥٥.

(٣) سورة الأعراف: ٨٩.

(٤) سورة هود : ٧١.

هذا الصنيع بأن من يقوم به يجعل الشعر أصلا للقرآن فيحتج به عليه؟ ! للإجابة عن هذا التساؤل نكتفي برواية الحقيقة الناصعة التي تفضل بها أبو بكر الأنباري في الرد على من فهم هذا الفهم الخاطئ حيث قال: «قد جاء عن الصحابة والتابعين، كثيرا، الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر وأنكر جماعة، لا علم لهم على النحويين ذلك، وقالوا: إذا فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن. قالوا: وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن وهو مذموم في القرآن والحديث.

قال: وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلا للقرآن، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[1] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] وقال ابن عباس: الشعر ديوان العرب. فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه..»[3]

وقد أشرنا من قبل، في فصل الرواية اللغوية[4]، إلى أن الإسلام حول الهدف من رواية الشعر الجاهلي إلى جهة حسنة تتفق وتعاليم الإسلام السمحة،

---

(١) سورة الزخرف : ٣.

(٢) سورة الشعراء : ١٩٥.

(٣) معجم غريب القرآن: ٢٣٤.

(٤) انظر ص:٥٩.

فليس المراد منه إذاً مجرد الإشباع الفني، كما كان في الجاهلية بل الاستعانة به على فهم القرآن فقط. ثم إن الشعر ليس كله مذموما بل ما كان فيه عداء للإسلام أو مخالفة صريحة لآدابه وقواعده العامة فهو المذموم، وأما ما عدا ذلك فلا ضير فيه، وبذلك نفهم الاستثناء الوارد في آية الشعراء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟﴾. الآية[1].

علاوة على ما ذكرنا فإن صاحب هذا المنهج صحابي جليل لا يصح لنا أن نخطئ فعله بل نحاكيه ونقلده فهو من الصحابة الذين أمرنا باتباع نهجهم والاقتداء بأفعالهم وأقوالهم، فكيف إذا ما علمنا أنّ الرسولﷺ قد خصه بدعوة الفقه في الدين وحسن التأويل، لا شك أن ذلك مما يطمئننا كثيرا على سلامة هذا المنهج السديد. ونروي هنا قصة وقعت لابن عباس رضي الله عنهما في أطهر بقعة في المسجد الحرام، اشتهرت بـــ«سؤالات نافع بن الأزرق».

نقل السيوطي عن ابن الأنباري في كتاب «الوقف» بسنده المتصل إلى عبد الله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه قال: ((بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتنفه الناس، يسألونه تفسير القرآن فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به.

(١) سورة الشعراء: آية: ٢٢٧.

فقاما إليه فقالا: إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين. فقال ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾[1]

قال: حلق الرفاق. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم. أما سمعت عبيد الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا

قال: أخبرني عن قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾[2].

قال: الوسيلة: الحاجة. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة أن يأخذوك تكحلي وتخضبي

ثم ساق بقية المسائل على هذا المنوال، وختمها بقوله: «وهي أسئلة مشهورة أخرج الأئمة أفرادا منها بأسانيد مختلفة إلى ابن عباس»[3]

المؤلفات في غريب القرآن:

إذا تجاوزنا ما نسب إلى ابن عباس من روايات متناثرة تفسر غريب

---

(١) سورة المعارج: ٣٧.

(٢) سورةالمائدة: ٣٥.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ٢/١٢١- ١٣٤.

القرآن، ولم نعتد بكتاب (تنوير المقباس من تفسير ابن عباس) الذي استخرجه الفيروزآبادي وقال عنه ابن النديم إنه أول كتاب ألف في تفسير القرآن[١] نجد:

١- أن أقدم من نصت المصادر على تأليفه كتابا في غريب القرآن هو: أبو سعيد أبان بن تغلب بن رباح البكري (ت: ١٤١هـ) وصفه ياقوت الحموي بقوله: «وصنف –أي أبان البكري– كتاب «الغريب في القرآن» وذكر شواهده من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان ومحمد بن الصائب وأبي روق عطية بن الحارث، فجعله كتابا فيما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه. فتارة يجيء كتاب أبان مفردا، وتارة يجيء مشتركا على ما عمله عبد الرحمن»[٢] غير أنه فقد، فلم يصل إلينا.

٢- أن أبا فيد مؤرج السدوسي (ت: ١٩٥هـ) ألف في غريب القرآن، وذكر الخطيب أن أهل مرو، قد رووه عنه[٣].

٣- في القرن الثالث ألف في الموضوع نفسه كل من: أبي محمد يحيى ابن المبارك اليزيدي (ت: ٢٠٢هـ)، والنضر بن شميل (ت: ٢٠٣هـ) وأبي عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢٠٩هـ) والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة (ت: ٢١١هـ) ونسب السيوطي للأصمعي (ت: ٢١٣هـ) كتابا في غريب القرآن،

---

(١) الفهرست: ٥٠.

(٢) معجم الأدباء: ١/١٠٨.

(٣) تاريخ بغداد: ١٣/٢٥٨.

ولكن لما عرف عنه من التحرج الشديد من التعرض لألفاظ القرآن يبدو أن النسبة لا تصح[١]، وأبي عبيد القاسم بن سلام (ت: ٢٢٤هـ) وقال ياقوت عن كتاب القاسم إنه «منتزع من كتاب أبي عبيدة[٢]»، ومحمد بن سلام الجمحي (ت: ٢٣١هـ) وأبي عبد الرحمن عبد الله بن محمد –المعروف بابن اليزيدي (تلميذ الفراء)، وأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٣٧٦هـ) وفي ختام القرن الثالث ألف ثعلب (ت: ٢٩١هـ) كتابا في الموضوع نفسه وصفه ابن النديم بأنه «لطيف[٣]» ولا تزال كتبهم جميعا في عداد المفقود إلى الآن[٤]؛ إذ لم يصل إلينا إلا كتابا أبي عبيدة وابن قتيبة، ولذا سنفردهما بالحديث.

---

(١) المعجم العربي: ١/٤٠.

(٢) معجم الأدباء: ١٦/٢٥٥.

(٣) الفهرست: ٧٤.

(٤) المعجم العربي: ١/٤٠.

أولاً: مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى «ت: ٢٠٩هـ»

الدافع إلى تأليفه:

ألف أبو عبيدة في سنة (١٨١هـ) بعد عودته إلى «البصرة» من مجلس الوزير الفضل بن الربيع (ت: ٢٠٨هـ) متأثرا فيه بسؤال أحد كتابه في المجلس[(١)].

ولأهمية هذا الدافع في بروز الكتاب إلى حيز الوجود، أروي القصة كاملة على لسان أبي عبيدة نفسه، قال: «أرسل إلي الفضل بن الربيع بالبصرة في الخروج إليه فقدمت عليه، وكنت أخبر عن تجبره، فأذن لي فدخلت عليه وهو في مجلس طويل عريض، فيه بساط واحد قد ملأه، وفي صدره فرش عالية لا يرتقي إليها إلا بكرسي، وهو جالس على الفرش، فسلمت عليه بالوزارة، فرد وضحك إليّ واستدناني حتى جلست معه على فرشه.

ثم سألني وبسطني وتلطف بي وقال: أنشدني، فأنشدته من عيون أشعار أحفظها جاهلية فقال: قد عرفت أكثر هذه وأريد من ملح الشعر فأنشدته، فطرب وضحك وزاد نشاطا.

ثم دخل رجل في زي الكتاب وله هيئة حسنة، فأجلسه إلى جانبي، وقال له: أتعرف هذا؟ قال: لا. فقال: هذا أبو عبيدة علامة أهل البصرة أقدمناه لنستفيد من علمه، فدعا له الرجل وقرظه لفعله هذا.

---

(١) معجم الأدباء: ١٥٨/١٩.

ثم التفت إليّ وقال: كنت إليك مشتاقا، وقد سئلت عن مسألة، أفتأذن لي أن أعرفك إياها. قلت: (هات) فقال: قال الله تعالى: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾[1] وإنما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله، وهذا لم يعرف. قال: فقلت إنما كلم الله العرب على قدر كلامهم، أما سمعت قول امرئ القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وهم لم يروا الغول قط، ولكنه لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به.. فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل، وأزمعت منذ ذلك اليوم أن أضع كتابا في القرآن لمثل هذا وأشباهه، ولما يحتاج إليه من علمه، ولما رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سميته «المجاز» وسألت عن الرجل فقيل لي: هو من كتاب الوزير وجلسائه»[2] والواضح من هذه القصة أن سؤال الكاتب كان دافعا مباشرا لتأليف الكتاب الذي عقد أبو عبيدة العزم على الشروع فيه، وأنه سيختار من القرآن ما يشكل على أغلب الناس فهمه مما له تعلق بأسلوب العرب وطريقة كلامهم.. وأنه سيسميه «المجاز»، غير أن الكتاب الذي بين أيدينا يحمل هذا الاسم، لا نلحظ فيه

---

(١) سورة الصافات: ٦٥.

(٢) وفيات الأعيان: ٥/٢٣٦، وسماه (في معجم الأدباء: ١٩/١٥٩) بإبراهيم بن إسماعيل الكاتب.

ذلك الاتجاه الذي اختطه أبو عبيدة وعقد العزم على تنفيذه إذ لا يعدو أن يكون كتابا للغريب في أخص خصائصه.

من هنا لا أدري حقيقة اسم هذا الكتاب: أهو «مجاز القرآن» كما يرجح المحقق[١]؟ وأن المؤلف قد خالف عند التنفيذ ما كان قد عزم عليه، فاستعرض آي القرآن على ترتيبها في المصحف وانتخب من الآيات ما يشكل فهم معناه ففسّره بلغة العرب واستشهد عليه من مأثور شعرهم ولم يحفل بالصور البيانية، والاستعمالات البلاغية، فاتسعت بذلك دائرة «المجاز»[٢] لتشمل التقدير والتأويل والتفسير بأوسع معانيه؟ أم أن هذا هو «غريب القرآن» الذي ألفه، ونقله عنه ابن النديم ومن جاء بعده[٣]، وأن كتاب «المجاز» قد فقد من بين عشرات كتبه التي لم تصل إلينا؟! إذ إن الصورة البيانية التي رأيناها في جوابه عن سؤال السائل لا تعرض كثيرا في هذا الكتاب إن لم نقل بفقدانها.

حتى إن الآية الخامسة والستين من سورة الصافات، والتي كانت

---

(١) المقدمة: ١٨.

(٢) لم يكن أبو عبيدة يعني بهذه الكلمة المعنى المتعارف عليه عند البلاغيين، فيما بعد، وهو ما يقابل الحقيقة. ولذلك فقد وقع في هذا الخطأ بعض الباحثين المعاصرين فعدوه أول مؤلف في المجاز الاصطلاحي، اعتمادا على اسمه دون الاطلاع عليه، (انظر مقدمة المحقق: ١٩).

(٣) الفهرست: ٧٩، وفيات الأعيان: ٥/٣٣٨.

الدافع المباشر لتأليف أبي عبيدة كتاب «المجاز» لم ترد في النسخة المطبوعة، وقد اتفقت نسخ الكتاب الأربع المخطوطة على ذلك، إذ لم يشر المحقق إلى اختلاف بينها في موضعه[1]، وهذا مما يرجح جانب الشك لدي في حقيقة اسم هذا الكتاب؛ وإلى أن يفصح لنا الزمن بأدلة قاطعة تؤكد هذا الزعم أو تنفيه نظل على القول السائد المشهور.

رواياته:

لقد وصل إلينا الكتاب برواية أبي الحسن على بن المغيرة الأثرم (ت: ٢٣٢هـ) عن طريق أبي الحسن علي بن عبد العزيز، وأبي محمد ثابت ابن أبي ثابت عبد العزيز، ومن نسخ هاتين الروايتين طبع الكتاب محققا في جزأين[2]، أما الروايات الأخرى وهي رواية ثعلب عن الأثرم، ورواية أبي سعيد السكري عن أبي حاتم السجستاني، ورواية رفيع بن سلمة وأبي عبد الله بن محمد التوزي فلا نعرفها إلا عن طريق ما روي عنها من الكتب والمصادر القديمة[3].

---

(١) المجاز: ٢/١٧٠ (من آية ٦٣ إلى ٦٧) مباشرة.

(٢) قام بتحقيقه ومعارضة أصوله الدكتور فؤاد سزكين، ونشرته مكتبة الخانجي ودار الفكر بالقاهرة: ١٩٥٤، ١٩٦٢.

(٣) فهرست ابن خير: ٥٩.

مـــــادتـــه:

الكتاب نفسه يسير على مبدأ الانتخاب من الآيات الكريمة مرتبة داخل السور وفق ترتيبها في المصحف الشريف، وما اختل من ذلك عني المحقق بإعادته إلى موضعه الطبيعي، فبدأ بسورة الفاتحة واختتم بالناس. وانتقى من الآيات بعض الكلمات التي يرى فيها غرابة أو إشكالا فيفسره، وغالبا ما يقدم لفظ «ومجازه كذا» غير أنه لا يلتزمه، فيعدل عنه إلى «وتفسيره كذا.. وتأويله كذا» أو يقول مثلا: «هدى للمتقين أي بيانا للمتقين» وربما أعقب اللفظ المراد شرحه بما يرادفه غير مسبوق بشيء.. كقوله: «لاريب فيه، لاشك فيه»[١]، ويتسم منهجه بالاختصار في الشرح غالبا فقد يتفق ألا يزيد تعليقه على كلمة واحدة[٢] تساوي الكلمة المشروحة في معناها وكثيرا ما يستشهد للمعنى الجديد بشعر محتج به، ولا تكاد تخلو كلمة من غير شاهد، وربما عدل عنه إلى ضرب المثل[٣]أو أردفه به، وقد يستدل للمراد من الآية بآية أخرى من القرآن أو بحديث نبوي شريف[٤]، وقد يستطرد فيشرح الشاهد أو المثل فيذكر المعاني المتعددة له ويستشهد لها بالشعر أيضا ومن ذلك تفسيره لكلمة «المفلحون» فذكر

---

(١) مجاز القرآن: ١/٢٩.

(٢) انظر للمثال: ١/٢٢٥، ٢٧٥، ٣٣٠ وغيرها.

(٣) مجاز القرآن: ١/٢٣، ٣٠٣، ٢/١٢٠، ٢٧٦.

(٤) نفسه: ١/٧٧، ١٠٠/٢/٦٥، ٩١، ٢٠٨ وغيرها.

معناها اللغوي واستشهد لها بشعر لبيد بن ربيعة بن الأبرص ثم استمر يشرح معاني «الفلاح» المتعددة ومشتقاتها واستدل على تلك المعاني بأبيات شعرية[١].

ويبدو أنه لا مانع لديه من تكرار الشاهد في مواضع متفرقة إذا دعت المناسبة ووجد وجهًا للاستشهاد، فقد استشهد ببيت خُفَاف بن نَدبة[٢]:

فإن تك خيلي قد أصبت هميمها فعمدا على عين تيممت مالكا
أقول له والرمح يأطر متنه تأمل خفافا إنني أنا ذلكا

على طريقة العرب في مخاطبة الشاهد بلفظ الغائب، ثم أعاد الاستشهاد بالبيت الأول عند آية ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾[٣] للدلالة على أن معنى التيمم: العمد.. وغيره كثير[٤]، وإذا كانت هناك لغة عربية[٥] أو غير عربية يشير إليها، فهو يقول مثلا: «ولم يصرف إبليس لأنه أعجمي[٦]» لكنه لا يعترف بوجود المعرب في القرآن بل وينكر على من يقول ذلك —كما

---

(١) المجاز: ١/٢٩- ٣١.

(٢) البيتان في الأغاني: ١٦/١٣٤، وخزانة الأدب: ٢/٧٢.

(١) البقرة: آية ٢٦٧.

(٤) مجاز القرآن: ١/٢٨، ٨٢.

(٥) مجاز القرآن: ١/٢٠، ٢١، ٣٤.

(٦) مجاز القرآن: ١/٣٨.

نقل عنه ابن فارس والزركشي والسيوطي إنكاره وقوع المعرب في القرآن[١].. يؤيد ذلك قوله في صدر هذا الكتاب: «نزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أن فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أن «طه» بالنبطية فقد أكبر[٢]»، ثم نبه إلى أن ما جاء من نحو استبرق وسجيل، ونحوهما فهو مما وافقت لغة العرب لغة غيرهم[٣].

ولم يخل حديثه في المقدمة من نظرات لغوية وبيانية عارضة اكتفى بالإشارة إليها دون الخوض في قواعدها وجزئياتها فهو يقول بصفة عامة: «فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي ﷺ أن يسألوا عن معانيه لأنهم كانوا عرب الألسن، فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه، وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص وفي القرآن مثل ما في الكلام العربي من وجوه الإعراب، ومن الغريب والمعاني[٤]»، ثم ذكر نماذج[٥] لأساليب العرب وطريقة كلامهم وشواهدها من القرآن الكريم، ونمثل لها بما يلي:

*مجاز ما اختصر وفيه مضمر، قوله تعالى: ﴿وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا

[illegible]

(١) البرهان: ٢٨٧/١، والإتقان: ١٣٧/١، المزهر: ٢٦٦/١، المعرب من الكلام الأعجمي (مقدمة المحقق): ٤.

(٢) مجاز القرآن: ١٧/١.

(٣) نفسه: ١٨/١

(٤) نفسه: ٨/١.

(٥) نفسه: ٨/١-١٦.

وَٱصْبِرُوا۟ ﴾[١].

*مجاز ما حذف وفيه مضمر، قوله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا ﴾ الآية[٢].

*مجاز ما عبر بلفظ المفرد عن الجمع، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾[٣] وعكسه قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[٤] وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ ﴾[٥].

*مجاز ما جاء لفظه لفظ الجمع الذي له مفرد، ووقع معنى الجمع على المثنى، قوله تعالى: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾[٦].

*ومن مجاز ما جاء لا جماع (أي: جمع) له من لفظه، فلفظ الواحد منه ولفظ الجميع سواء.. قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾[٧].

---

(١) سورة ص: آية٦.. والمعنى: (وتواصوا أو تنادوا أن امشوا..).

(٢) سورة يوسف: آية٨٢.. والقراءة السبعية بإثبات الهمزة (واسأل) والمعنى: أي أهل القرية.

(٣) سورةالحج: آية٥.. أي أطفالا.

(٤) سورة التحريم: آية٤ .. أي ظهراء.

(٥) سورة آل عمران: آية ١٧٣.. والمتكلم رجل واحد هو: نعيم بن مسعود.

(٦) سورة المائدة: آية ٣٨.. والمعنى: يديهما.

(٧) سورة يونس: آية ٢٢.. فالفلك مفرد وجمع (ولا واحد له من لفظه).

*ومن مجاز ما جاء من لفظ الاثنين ثم جاء خبرهما على لفظ خبر الجميع، قوله تعالى: ﴿أَئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١].

*ومن مجاز ما جاء من لفظ خبر الحيوان والموات على لفظ خبر الناس، قوله تعالى: ﴿رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾[٢].

*ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الغائب والمراد الشاهد، قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾[٣].

*ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد، ثم عدل عنه إلى مخاطبة الغائب قوله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾[٤].

*ومن مجاز المكرر للتوكيد قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾[٥].

*ومن مجاز المقدم والمؤخر، قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾[٦].

*ومن مجاز ما يحول خبره إلى شيء من سببه ويترك خبره، قوله تعالى:

---

(١) سورة فصلت: آية ١١.

(٢) سورة يوسف: آية٤.

(٣) سورة البقرة: آية٢.. والمعنى: هذا الكتاب.

(٤) سورة يونس: آية٢٢.. والمراد: بكم.

(٥) سورة المسد: آية ١.

(٦) سورة الحج: آية ٥.. وربا النبات: زاد وعلا، واهتز: تحرك لنضارته (المفردات: ١٨٧).

﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[١].

*ومن مجاز المصدر الذي في موضع الاسم أو الصفة.. قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ﴾[٢].

*ومن مجاز تناوب الأدوات عن بعضها.. قوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ﴾[٣]. ووقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾[٤].

*ومن مجاز ما أظهر من لفظ المؤنث ثم جعل بدلا من المذكر فوصف بصفة المذكر بغير الهاء قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾[٥].

*ومن مجاز التنبيه بتغليب أحدهما على الآخر، قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾[٦].

*ومن مجاز ما يحتمل وجوه الإعراب، قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾[٧]. ثم يعيد القول فيها مرة أخرى إذا دعت المناسبة

---

(١) سورة الشعراء: آية ٤.. والمراد: فظلت أعناقهم خاضعة لها.

(٢) سورة البقرة: ١٧٧.. والمراد: البار.

(٣) سورة طه: آية ٧١.. والمراد على جذوع النخل.

(٤) سورة المطففين: آية ٢.. والمراد: من الناس.

(٥) سورة المزمل: آية ١٨، والمعنى -عنده- جعلت السماء بدلا من السقف بمترلة تذكير البيت.

(٦) سورة الرحمن: آية ٢٢، واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من البحر دون الفرات العذب.

(٧) سورة المائدة: آية ٣٨، فتحتمل الرفع والنصب.

ويفصل بعض التفصيل[١].

كما أنه يشير إلى الاستئناف والقطع إذا ترتب عليه معنى[٢]، وإلى الكناية والتشبيه بمعناهما العام، ومن ذلك قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[٣] كناية وتشبيه»[٤].

وهو يقول بالترادف والتضاد والاشتراك اللفظي في مجال الألفاظ ولا يرى بذلك بأسا، طالما أن لغة العرب جاءت به، فيقول مثلا: «مهاد أي فراش وبساط» و«بسيماهم» أي بعلاماتهم[٥]»، ولم يلحظ فروقا دقيقة بين المعاني كما يتصوره المانعون[٦]. ويقول عن التضاد: «فما فوقها: فما دونها في الصغر[٧]» «وبقرة صفراء: أي سوداء»[٨] «ولباس لكم: أي فراش»

---

(١) للمثال انظر: المجاز: ١/٢٣، ٣١، وغيرها.

(٢) المجاز: ١/٣٢.

(٣) سورة البقرة: ٢٢٣.

(٤) المجاز: ١/٧٣.

(٥) المجاز: ١/٢١٤، ٢١٥ وغير ذلك كثير.

(٦) مانعوا الترادف: يلتمسون فروقا دقيقة بين الكلمات التي يعدها غيرهم من المترادفات. (في اللهجات العربية: ١٧٤).

(٧) المجاز: ١/٣٥.

(٨) نفسه: ١/٤٤.

ويستشهد لذلك بقول الجعدي رضي الله عنه[١]:

تثنت عليه فكانت لباسا

وغير ذلك كثير[٢].

ويقول بالاشتراك اللفظي، ويؤوله بتأويل لطيف يجمع بين معنى اللفظين في معنى عام، انظر إليه وهو يفسر معنى القرء: إذ يقول: «فجعله بعضهم الحيضة، وجعله بعضهم الطهر... ثم قال: وكل قد أصاب؛ لأنه خروج من شيء إلى شيء، فخرجت من الطهر إلى الحيض، ومن قال: بل هو الطهر فخرجت من الحيض إلى الطهر»[٣] فهو يشير إلى المعنى الذي يدل عليه القرء حيث كان في الأصل عاما غير محدد وهو الخروج من حالة إلى أخرى وبذلك يصدق كلا التفسيرين عليه، ويبقى للسياق النص على المراد.

وربما لا تخرج موضوعات الكتاب عن هذه النقاط التي أثرناها فيما سبق، ومما يجدر ذكره أن لأبي عبيدة -في كتابه- تعبيرات وآراء خاصة ربما يكون قد انفرد بها -فهو مثلا: يسمى «الضمير «كناية» على طريقة الكوفيين فيقول عن قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾[٤] «إذا بدئ بكناية المفعول قبل الفعل جاز الكلام، فإن

---

(١) نفسه: ١/٦٧.

(٢) نفسه: ١/٣٩، ٧١، ٧٤.

(٣) المجاز: ١/٧٣، ٧٤.

(٤) سورة الفاتحة: ٤.

بدأت بالفعل لم يجز، كقولك: نعبد إياك.. ثم يقول –ولو بدأت بالفعل لم يجز كقولك: ((أدعو إياك)) فإن زدت الكناية في آخر الفعل (ويعني به الجملة) جاز الكلام: أدعوك إياك[١]».

ويصف «إذ» الظرفية في قـــوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ ﴾[٢] بأنها من حروف الزوائد، وقد خطأه بعض النحويين والمفسرين فقال النحاس: هذا خطأ لأن «إذ» اسم وهي ظرف زمان وليس مما يزاد، وقال الزجاج: «هذا اجترام من أبي عبيدة[٣]» وقال الطبري نحوا من ذلك ونعته –لأجل هذا الخطأ– بأنه من المنسوبين إلى العلم بلغات العرب[٤]، و منه تعريفه الآية من القرآن بأنها كلام متصل إلى انقطاعه وهذا خلاف ما جاء بالمصحف الشريف ونص عليه علماء الرسم والضبط القرآني من أن الآية: «طائفة ذات مطلع ومقطع مندرجة في سورة من القرآن... ولا سبيل إلى معرفة آيات القرآن إلا بتوقيف من الشارع؛ لأنه ليس للقياس والرأي مجال فيها[٥]»، ولا يستلزم استقلال الآية بمعنى واحد، فقد تشتمل الآية على أكثر من جملة تامة، وقد لا يتم معناها إلا مع الآية

---

(١) المجاز: ١/٢٤

(٢) سورة البقرة: ٣٤.

(٣) تفسير القرطبي: ١/٢٦٢.

(٤) تفسري الطبري: ١/١٠٥.

(٥) مناهل العرفان: ١/٣٤٠.

التي تليها[١] إلى غير ذلك مما يلحظه الناظر في كتابه من تعبيرات خاصة انفرد بها إن لم نقل ابتكرها.

وننوه إلى أن الكتاب لم يبدأ مباشرة بتفسير المختار من آيات القرآن بل قدم لذلك بمقدمة هامة قسمها قسمين، تناول في القسم الأول منها ثلاثة ألفاظ تتردد كثيرا في المصحف الشريف وهي (القرآن، والسورة، والآية) فأشار إلى سبب تسميته قرآنا، ومأخذه من لغة العرب، واستشهد لذلك ببيت لعمرو بن كلثوم من معلقته المشهورة، وهو قوله[٢]:

ذراعـــــي عيطل أدماء بكر هجـــان اللـــون لم تقرأ جنينا

وفسر بعض الآيات التي تضمنت لفظ (القرآن) وبين المعنى المراد في كل آية، وأوضح الصلة بين تسميته قرآنا وفرقانا، فقال: ((وإنما سُمِّي القرآن فرقانا؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل))[٣] مطلع الكتاب.

ثم انتقل إلى اللفظ الثاني فعرف بـ(السورة)، وأخبر أن للعرب –في نطقها– لغتين إحداهما بالهمز والأخرى بدونها –وهو الأشهر، وأن المعنى على لغة الهمز هو ((مجاز قطعة من القرآن على حدة وفضلة منه؛ لأنه يجعلها من قولهم أسأر

---

(١) انظر البرهان: ١/٩٨.

(٢) ينظر ديوانه: ٦٨، وشرح العشر للتبريزي: ١١١، وجمهرة أشعار العرب: ٧٦، واللسان (قرأ).

(٣) المجاز: ١/٣.

سؤرا أي أبقيت وأفضلت منه فضلة»[١] وسميت سورة في لغة من لا يهمز «لأنه يجعل مجازها مجاز مترلة إلى مترلة أخرى كمجاز سورة البناء»[٢]، أما جمع السورة فقد اتفقت اللغتان على (سُوَر) بفتح الواو ليخالف بذلك (سور) جمع سورة البناء، واستشهد لجمع السورة القرآنية بقول الشاعر:

هن الحرائر لا ربات أخمرة   سود المحاجر لا يقرأن بالسور[٣]

ثم عرف اللفظ الثالث (الآية) بما سبق ذكره من أنها كلام متصل إلى انقطاعه. ثم أشار إلى تعدد أسماء بعض السور وتسمية بعض مجموعات منها «كالسبع الطوال والمئين والمثاني». واستشهد لذلك بالشعر والرجز والنص على اللغات العربية[٤].

وخص القسم الثاني من المقدمة بالكلام على الظواهر اللغوية العامة في القرآن ومثل لكل منها بنماذج –ما عدا المجمل المستغنى به عن التكرير؛ إذ لم ترد له أمثلة في النسخ التي وصلت –وقد ذكرنا بعضا منها فيما سبق، ثم ختم ذلك بالكلام على «بسم الله» فتناول معناها وبين أن

---

(١) المجاز: ١/٥.

(٢) المجاز: ١/٣.

(٣) البيت مختلف في نسبته قال في الخزانة: ٩/١٠٨، والبيت وقع في شعرين، أحدهما للراعي النميري، والثاني: للقتالي الكلبي وهو في الجمهرة: ٣/١١٤، والصحاح واللسان (سور).

(٤) المجاز: ١/١-٧.

الاسم -عنده- هو المسمى، والمعنى «إنما هو بالله؛ لأن اسم الشيء هو الشيء بعينه[١]» واستشهد لذلك ببيت لبيد:

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ... ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

أي ثم السلام عليكما، وقد خطأه المبرد في ذلك، ورد عليه في أن الاستشهاد ببيت لبيد غير صحيح، وأن «السلام» اسم من أسماء الله وهو المقصود بالبيت، وليست لفظة (اسم) صلة، كما زعم أبو عبيدة ومن تابعه، ورجح ابن السيد البطليوسي رأي المبرد[٢]، ثم استطرد فذكر أشياء سبق أن ذكرها في صدر المقدمة، وعرض بإيجاز للظواهر اللغوية التي سبق أن فصل القول فيها مدعّمة بالآيات القرآنية والشواهد الشعرية ولغات العرب[٣].

مميزاته:

يحسن بنا في ختام دراستنا لكتاب أبي عبيدة أن نجمل المميزات التي اختص بها فيما يلي:

١- اهتمام المؤلف بالناحية اللغوية والتركيز على الكلمات الغريبة وتفسيرها.

٢- اعتماده على الحس اللغوي الخاص في تفسير القرآن وإعراب آياته.

٣- العناية الواضحة بالقراءات التي يختلف بها المعنى، ونسبتها إلى أصحابها أو بيئتها[٤].

---

(١) المجاز: ١/١٦.

(٢) خزانة الأدب: ٢/٢١٧، القرطبي: ١/٨٦.

(٣) المجاز: ١/٨-١٩.

(٤) انظر: القراءات في قوله تعالى: فتبينوا (سورة الحجرات: آية ٦) أئذا ضللنا (سورة السجدة: آية١٠) بعد أمة (يوسف: آية ٤٥) في لوح (البروج: آية ٢٢) وغيرها.

٤- الإكثار من الاستشهاد على المعاني بالشعر العربي والأمثال.

٥- الوقوف عند القضايا الإعرابية والخوض فيها بالحس اللغوي الخاص المتحرر من قيود المدرستين البصرية والكوفية.

٦- ظاهرة الاستطراد في تفسير القرآن بالقرآن أو شرح الشواهد الشعرية الاستشهاد على الشرح نفسه.

وبعد، فمما تقدم أستطيع أن أقرر مطمئنا أن كتاب مجاز القرآن، الموجود بأيدينا، كتاب لغة في الدرجة الأولى، كشف النقاب عن غريب القرآن بأسلوب لغوي بارع، وأنه قد جمع إلى جانب الموضوعات اللغوية موضوعات أخرى متنوعة وخدمة لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ثانيا: تفسير غريب القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ((ت:٢٧٦هـ))

يعد هذا الكتاب من أقدم المصادر اللغوية لتفسير الغريب، بعد مجاز القرآن، وقد ألفه أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢٧٦هـ)، تتمة لكتابه (تأويل مشكل القرآن)؛ لأنه يعد اللفظ الغريب من المشكل الذي رام توضيحه، وخشية أن يطول كتابه ((تأويل المشكل)) أفرد للغريب كتابا مستقلا هو هذا الكتاب.

والكتاب مطبوع في مجلد واحد قام بتحقيقه السيد أحمد صقر معتمدا فيه على صورة شمسية للمخطوط كانت في حوزة الشيخ/ أحمد محمد شاكر، وقامت بطبعه دار إحياء الكتب العربية.

غـرضـه:

وضح ابن قتيبة غرضه الذي امتثله عند تأليفه هذا الكتاب وهو أن يختصر المطول ويكمل الناقص، وأن يوضح المبهم ويجمل المطنب، وأن يجتنب حشو الكتاب بآراء النحاة وأهل الحديث، ويترك الأسانيد لئلا يكون مجرد ناقل فيأتي كتابه كسائر الكتب المؤلفة قبله[١].

وحاول ابن قتيبة أن يجعل كتابه هذا ممثلا للأسلوب العلمي الناضج

---

(١) تفسير غريب القرآن: ٣.

على من كونه في باكورة الإنتاج اللغوي، فبدأه بمقدمة وضح فيها غرضه من تأليف الكتاب، وأشار إلي أن كتابه مستنبط من كتب المفسرين وعلماء اللغة المتقدمين، وأنه لم يخرج فيه عن مذاهبهم، ولم يتكلف في شيء منه برأي غير معانيهم، وأن عمله لا يعدو أن يكون ترجيحا للأولى الموافق للغة العرب والمناسب لسياق الآية الشريفة.

ثم نعى في ختام مقدمته، على بعض المفسرين تفسيراهم الخاطئة لمعاني القرآن الكريم، وضرب لذلك أمثلة ذكر أنها من منكر التأويل، وألزم نفسه بالبعد عنها والحذر منها، لكنه تردد في الجزم بمنشأ الغلط فيها وقال: ((لا ندري أوقع الغلط من جهة المفسرين أم من جهة النقلة))[١].

هذه الأغراض الثلاثة هي كل ما تناولته مقدمة الكتاب، وقد التزم ابن قتيبة بما قطعه على نفسه في هذه المقدمة وسار عليه سيرا حسنا.

منهـجـه:

قسم المؤلف كتابه ثلاثة أقسام:

الأول: لتأويل أسماء الله الحسنى وصفاته واشتقاقهما.

الثاني: لتفسير المفردات التي تكررت في القرآن.

الثالث: لتفسير الغريب.

وفيما يلي عرض لأقسامه الثلاثة:

---

(١) الكتاب نفسه: ٥.

القسم الأول: جعله تحت عنوان (اشتقاق أسماء الله وصفاته، وإظهار معانيها) وذكر فيه ستة عشر اسما من أسماء الله الحسنى وعشرا من صفاته فوضح دلالتها اللغوية، وكيفية اشتقاقها مستشهدا لذلك بالشعر والنثر العربي، أو ببعض الآيات والأحاديث[١].

ويلاحظ أن المؤلف لم يعمد إلى ترتيب معين عند ذكر الأسماء والصفات، فقد رتبها هكذا «الرحمن، الرحيم، السلام، القيوم، القيام، سبوح...إلخ» وهذا الوضع لا يتمشى مع أي نوع من الترتيب الذي جاء قبله أو بعده.

القسم الثاني: بعنوان (باب تأويل حروف كثرت في هذا الكتاب)[٢].

ويعني بالحروف ألفاظا خاصة ذات دلالات قرآنية يتردد ذكرها في القرآن الكريم ولم ير أن بعض السور أولى بها من بعضها الآخر، مثل: الجن، الإنس، الثقلين، الملائكة، الشيطان وغيرها.. وتعدادها أربعون حرفا لم يلتزم فيها أيضا ترتيبا معينا سوى التناسب العام عند الذكر، ولم تختلف طريقته عن سابقه، فقد عني باشتقاق اللفظ لغويا ثم تفسيره بحسب سياقه في القرآن وقد يستشهد لذلك بالشعر[٣] أو يدعمها بآراء العلماء[٤]

---

(١) الكتاب نفسه: ٦-٢٠.

(٢) الكتاب نفسه: ٢١-٣٧.

(٣) نفسه: ٣٠.

(٤) نفسه: ٣٤.

أو بتفسير القرآن نفسه[١]، وربما ترك لك ذلك كله، وانصرف إلى ذكر سبب نزول الآية وما يتعلق بها[٢].

القسم الثالث: وهو صلب الكتاب وعمدته وقد أفرده لتفسير غريب القرآن[٣] وفيه انتقى ألفاظا غريبة –كما يراها– مرتبة ترتيبها الطبيعي داخل السور، ومبتدئا بسورة الفاتحة فالبقرة ومختتما بسورة الناس، ثم يشرحها شرحا موجزا يبين معناها، وقد يردها إلى أصلها ويوضح اشتقاقها وقد يورد آية أخرى توضحها، وفي الغالب لايستطرد في الشرح والتعليق بل التزم بما قطعه على نفسه –في مقدمته– من إيثار الاختصار، حتى أن تفسيره في بعض الأحيان لا يزيد على كلمة واحدة كما في قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾[٤] أي: الوحي[٥]. وقد يتجاوز تعليقه الصفحة الواحدة، كما في شرحه لقول الله عزوجل ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾[٦] واستعان بالشعر كثيرا لتوضيح معاني الألفاظ وعزاه في الغالب إلى قائله، كما استشهد بستين حديثا وأكثر من خمسين قولا مأثور

---

(١) نفسه: ٣٩.

(٢) نفسه: ٣٥.

(٣) نفسه: ٣٨-٥٤٤.

(٤) سورة غافر: ١٥.

(٥) غريب القرآن: ٣٨٦.

(٦) سورة الحجر: ٢٢، وانظر الكتاب نفسه: ٢٣٧.

للغرض نفسه.. لكن ما استشهد به يعد قليلا بالنسبة إلى الألفاظ الغريبة التي فسرها في كتابه.

وكثيرا ما يشير ابن قتيبة إلى كتابه «تأويل مشكل القرآن» ويحيل عليه حتى بلغت إحالاته أكثر من مئة مرة، مما لا يدع مجالا للشك في ارتباط الكتابين بعضهما ببعض ارتباطا وثيقا، وأنه يوجد بينهما تشابه كبير في معالجة بعض الآيات[١].

التأثير والتأثرفيه:

لقد انتفع ابن قتيبة بكتب الغريب المؤلفة قبله انتفاعا عظيما وبخاصة كتابي (مجازالقرآن) لأبي عبيدة (١١٠هـ) و(معاني القرآن) للفراء (٢٠٧هـ) حتى إنه ينقل كلامهما بنصه دون أن يتصرف فيه[٢]، وتأثر في قضايا الاشتقاق بالأصمعي (٢١٣هـ) واستشهد بأقواله[٣]، كما نقل أقوالا لابن عباس ومجاهد والكلبي في التفسير وعزا الأقوال إلى أصحابها، وربما اكتفى بقوله: «قال بعض المفسرين»[٤].

ولم يكن ابن قتيبة مجرد ناقل بل كثيرا ما يوازن ويرجح ويختار

---

(١) انظر غريب القرآن:٣٠٥ وتأويل مشكل القرآن: ٢٥٢.

(٢) تفسير غريب القرآن (مقدمة المحقق).

(٣) نفسه: ٢١٥.

(٤) نفسه: ٣٥٢.

الرأي الأمثل الذي يطمئن إليه، وربما تعدى ذلك إلى النقد الجريء اللاذع.. لكنه مع ذلك لم يخل من الخطأ في تفسير بعض الغريب على وجه لا يحتمله سياق الآية، وقد أحسن محقق الكتاب صنعا حينما تدارك أمثال ذلك ونبه عليه وأيده بأقوال الثقات(١).

ولم يقلل ذلك من أهمية الكتاب فلسبقه ولحسن منهجه اعتبر مصدرا هاما في مجال غريب القرآن تأثر به من جاء بعده، ويكفي أن نشير إلى أن ابن جرير الطبري –وهو وهو في سعة العلم والاطلاع– قد اعتمد كثيرا، على تفسير ابن قتيبة وانتفع بآرائه وضمنها تفسيره العظيم (جامع البيان).

غير أنه –رحمه الله– لم يشر إلى ابن قتيبة بأية إشارة واضحة أو مبهمة مثل فعل مع الفراء وأبي عبيدة(٢).

ب– لغات القرآن:

هو اصطلاح قديم ورد في مؤلفات القدامى منذ بداية التأليف؛ ويعنون به ما ورد بكتاب الله عز وجل من الألفاظ التي اختصت بها القبائل العربية قبل أن تدخل في تأليف اللغة الموحدة التي نزل بها الكتاب العزيز.

يدلنا على ذلك صنيعهم في الكتب التي وصلت إلينا، أو نقل بعضها

---

(١) انظر على سبيل المثال ص٦٧، من المصدر نفسه والهامش أيضا.

(٢) ص (د) من (مقدمة المحقق).

لنا، وتحمل هذا الاسم أو ما يشابهه، وتقصر الحديث على الألفاظ الغريبة بسبب أخذها من قبائل عربية فتشير إليها بعد أن تبين معناها فتقول مثلا: السفيه: الجاهل بلغة كنانة... والمسافحة: الزنا بلغة قريش... والدسر المسامير بلغة هذيل[١]» وهكذا.

الدافع إليها:

حينما دعت الحاجة إلى معرفة غريب القرآن واستعصى فهم بعض ألفاظه تتبع العلماء هذا الغريب ونظروا فيه فوجدوا أن غرابته تعود -في الغالب- إلى اختلاف القبائل العربية وتباين لهجاتها، فقد يؤخذ اللفظ من لغة هذيل مثلا فيكون غريبا على قبيلة كنانة فلا تفهم معناه.. لذلك أدركوا أن مفتاح هذا الاستغلاق يكمن في رد كل لفظة إلى قبيلتها فهي أعلم من غيرها بتفسيرها، فقوي الدافع -عند القدماء- إلى تأليف كتب من هذا النوع يوضح فيها اللفظ الغريب المشكل في القرآن وينص على معناه في قبيلته التي أخذ منها.

المصنفات في لغات القرآن:

أول من عزي إليه كتاب في لغات القرآن الصحابي الجليل: عبدالله ابن عباس رضي الله عنهما (ت: ٦٨هـ) في رسالة نسبت إليه تحت عنوان «كتاب اللغات في القرآن» رواها عبد الله بن الحسين بن حسنون المقرئ (ت:

---

(١) اللغات في القرآن: ١٧، ٢١، ٤٥.

٣٨٦هـ) بإسناده إلى ابن عباس، وأخبر بها أبو محمد إسماعيل بن عمرو (ت: ٤٢٩هـ)، ثم قام الدكتور صلاح الدين المنجد بتحقيقها ونشرها.

ويروى بعض الباحثين[١] أن الكتاب من عمل أحد الرواة المذكورة أسماؤهم في صدر الكتاب وليس من عمل ابن عباس نفسه، وقد جمع فيه روايات أتى بها ابن عباس في تفسير ألفاظ القرآن المعزوة إلى قبائلها، ثم انتقلت إلى الراوي الأخير بسند موثق، والدليل على ذلك أنّ أحدا من مترجمي ابن عباس لم ينسب له هذا الكتاب، وإنما نسبوا له الأقوال الكثيرة في التفسير وحده مروية لا مدونة[٢].

والكتاب في جملته يجمع بعض الروايات المعزوة إلى ابن عباس في نسبة بعض الألفاظ القرآنية إلى قبائلها العربية، وقد يتجاوز ذلك فينسب ألفاظا محدودة إلى لغات أخرى غير عربية كالفارسية والنبطية والحبشية والرومية وغيرها[٣].

وقد روعي في ترتيبه ترتيبا المصحف الشريف، فيستخرج ما فيه من لغات على ترتيب السور الكريمة: البقرة فآل عمران فالنساء... وهكذا ثم يتوقف عند سورة العاديات؛ لأنه لا يرى لغات قبيلة فيما بعدها من سور، ولكنه لم يراع ترتيب الآيات في داخل السور فقام المحقق بهذا العمل

---

(١) د/حسين نصار في المعجم العربي: ١/٧٣.

(٢) نفسه: ١/٣٩.

(٣) كتاب اللغات في القرآن: ١٧، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٥٤ وغيرها.

ونبه عليه في المقدمة[1].

أما طريقته فيذكر الآية التي فيها اللفظ ثم يفسره بالمعنى المراد في الآية ثم ينبه على اللغة القبيلة التي أخذ منها اللفظ. ويستطرد أحيانا إلى مواضع أخرى ذكر فيها اللفظ وورد فيها بالمعنى نفسه. وليس في الكتاب أي شاهد من الشعر أو النثر على هذه اللغات وتفسير ألفاظها.

ونمثل لهذه الطريقة المطردة بإحدى السور في الكتاب، قال[2]: «ومن سورة الفرقان: (قوما بورا) «١٨» يعني: هلكى، بلغة عمان.

(حجرا محجورا) «٢٢» يعني: حراما محرما، بلغة قريش. (أصحاب الرس) «٣٧» يعني :أصحاب البنات، وأزد شنوءة يسمون البنات الرس.

ويبدو أن الكتاب قد بذلت محاولة قديمة لتهذيبه في القرنين الخامس والسادس الهجريين، إذ إن الصورة التي رأيناه عليها كانت في أيام إسماعيل ابن عمرو الحداد (ت: ٤٢٩هـ) أحد رواته، ثم وصلت إلينا رواية أخرى متأخرة عن هذا الطريق نفسه عن شرف الدين أبي الحسن علي بن المفضل المقدسي، عن أبي طاهر أحمد بن محمد السلفي (ت: ٥٧٦هـ) طبعتها «دار إحياء الكتب العربية» على هامش تفسير «الجلالين» ونسبتها إلى أبي القاسم بن سلام، لكنها في الواقع ليست إلا نسخة مهذبة وفريدة من

(١) مقدمة المحقق: ١٣.

(٢) كتاب اللغات في القرآن:٣٧.

الكتاب المنسوب لابن عباس[١].

ومهما يبلغ الشك في نسبة الكتاب إلى ابن عباس، فإن الحقيقة التي يجب أن يصار إليها أن ابن عباس هو أول من غرس بذور هذا النوع من التأليف ثم تلقفه المفسرون اللغويون من بعده:

١- ففي أواخر القرن الثاني ألف هشام بن محمد السائب الكلبي (٢٠٤هـ) كتابا في «لغات القرآن»، ولذلك يعده ابن النديم أول مؤلف في هذا الفن[٢] حيث جاء على شكل كتاب مدون، غير أن يد الضياع قد امتدت إليه فيما يبدو و لم تبق له إلا إشارات في بطون الكتب[٣].

٢- وألف الهيثم بن عدي (المتوفى بين عامي ٢٠٦، ٢٠٩هـ) كتابا في لغات القرآن لكنه مفقود أيضا[٤].

٣- ثم ألف أبو زكريا الفراء (٢٠٧هـ) كتابا في لغات القرآن لم تبق منه إلا إشارات عابرة أو نصوص منقولة[٥].

٤- ونسب للأصمعي (٢١٣هـ) كتاب في لغات القرآن[٦]، ولكن يشك بعض

---

(١) مقدمة المحقق: ١٣.

(٢) الفهرست: ١٤١.

(٣) الفهرست: ١٤١.

(٤) الأصنام (المقدمة): ١٩، ٧٣.

(٥) البحر المحيط لأبي حيان: ١٩٣/٣، والتصريح: ١٢٨/١، ١٣٨.

(٦) الفهرست: ٥٣.

الباحثين في صحة هذه النسبة إليه، وذلك أن كتب الطبقات والتراجم لم تعز له كتابا بهذا الاسم[١]، وكذلك ابن النديم حين ترجم له لم يذكر له هذا الكتاب وإنما نسب إليه «كتاب اللغات» فقط[٢]، وحينما دون الكتب المؤلفة في غريب القرآن عد للأصمعي كتابا بهذا الاسم فالدليل واهٍ في نسبة هذا الكتاب إلى الأصمعي، ولعله قد التبس عليه بكتاب «اللغات».

ثم إن مما يؤكد ذلك ما اشتهر عنه -رحمه الله- من توقيه الكلام في الألفاظ القرآنية، «فقد كان لا يفسر شيئا من القرآن، ولا شيئا من اللغة له نظير واشتقاق في القرآن، وكذلك الحديث، تحرجا[٣]» سئل عن قوله تعالى ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾[٤] فسكت، وقال هذا في القرآن[٥]، «وكذلك لم يتكلم في عصفت وأعصفت؛ لأن في القرآن [ريح عاصف] »[٦].

كما كان -رحمه الله- يتحرج من السنة أيضا، ومن ذلك أن تلميذه نصر بن علي قال: حضرت الأصمعي وقد سأله سائل عن

---

(١) بغية الوعاة: ٣١٤، إنباه الرواة: ٢/٢٠٣، الوفيات:٢/٣٤٩.

(٢) الفهرست: ٨٢.

(٣) المزهر: ٢/٣٢٥، ٢/٣٢٨، ٢/٤٠٤.

(٤) سورة يوسف: ٣٠.

(٥) بيان إعجاز القرآن (الخطابي): ٣١.

(٦) المزهر: ٢/٣٢٦.

معنى قول الرسولﷺ : ((جاءكم أهل اليمن وهم أبخع نفسا)) ما معنى أبخع نفسا؟ قال: يعني أقتل، ثم أقبل متندما على نفسه كاللائم لها، فقلت له: لا عليك، فقد حدثنا سفيان بن عيينة عن أبي نجيح عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾[١] أي قاتل نفسك، فكأنه سرى عنه[٢].

فرجل كهذا لا نتوقع منه أن يؤلف كتابا يستعرض فيه ألفاظ القرآن بعد ما توحدت وأصبحت لغة العرب المشتركة ليرد كل لفظه إلى قبيلتها الظنية التي ربما لم يعرف منها إلا بضعة رجال، ثم إن ابن النديم وحده تفرد بذلك ثم ناقضه في موطن آخر[٣].

٥- واقتفى أثره أبو زيد الأنصاري (ت: ٢١٥هـ) فألف كتابا فيه ولعله فقد أيضا[٤].

وختم القرن الثالث بمؤلف ((لم يتم)) في لغات القرآن لابن دريد (ت: ٣٢١هـ)[٥] وصلتنا نقول منه في كتابه ((جمهرة اللغة))[٦].

---

(١) سورة الكهف: ٦.

(٢) المزهر: ٣٢٧/٢.

(٣) الفهرست: ٥٣، ٨٢.

(٤) بغية الوعاة: ٢٠٥، المعجم العربي: ٧٥.

(٥) الفهرست: ٥٣.

(٦) الجمهرة: ٤٠٠/٢، ٧٨/٣.

المبحث الثالث: معاني القرآن

المراد بمعاني القرآن:

المعنى: قصد الشيء وإرادته. تقول: «عنيت بالكلام كذا» أي قصدت ذلك وأردته.

وهو مشتق من قول العرب: «عنت القربة» إذا أظهرت ماءها و لم تحفظه، أو من قولهم: «عنت الأرض بنبات حسن» إذا أنبتت نباتا حسنا[1]. ثم انتقل من الحسي إلى المعنوي لمناسبة الظهور في الشيء عند إرادته بالبحث عنه.

ومعاني القرآن: مصطلح قديم أطلقه علماء اللغة الأوائل على مؤلفاهم التي تحاول تفسير القرآن ببيان معاني بعض آياته وتفسير المشكل منها مستعينة باللغة وقضايا الإعراب، بصورة أكبر، لتوضيح المراد، بعيدة عن الخوض في قضاياه التشريعية أو الكلامية.

وكان أول من وصل إلينا خبر تأليفه كتابا في معاني القرآن:

واصل بن عطاء (ت: ١٣١هـ) ثم يونس بن حبيب (ت: ١٨٥هـ) ثم أبو جعفر الرؤاسي (ت: ١٨٧هـ) والكسائي (ت: ١٨٩هـ)، وأبو فيد مؤرخ السدوسي (ت:١٩٥هـ) وأبو محمد اليزيدي (ت: ٢٠٢هـ)، وقطرب: محمد بن المستنير(ت: ٢٠٦هـ) ويحيى بن زياد الفراء (ت: ٢٠٧)

---

(١) ابن فارس: مقاييس اللغة (عنى)، الصاحبي: ٣١٢.

وأبو عبيدة معمر بن المثنى (ت: ٢١٠هـ)[١]، والأخفش سعيد بن مسعدة (ت: ٢١١هـ) والمبرد (ت: ٢٨٠هـ) وثعلب (٢٩١هـ) وابن كيسان (ت: ٢٩٩هـ)، والمفضل بن سلمة (ت: ٣٠٠هـ تقريبا).

ولم يصل إلينا من هذه المجموعة إلا كتابا (الفراء والأخفش)، أما الكتب الأخرى فقد امتدت إليها يد الضياع، ويرى بعضهم أن كتاب أبي عبيدة (مجاز القرآن) يعد من كتب المعاني حسب مضمونه وحسب رؤية كثير من العلماء له، والذين يذكرون له كتابا في المعاني ربما كانوا يقصدونه، ونتحدث فيما يلي عن الكتاب الأول منهما:

---

(١) وهم الخطيب البغدادي في عده أبا عبيدة أول من صنف في معاني القرآن (تاريخ بغداد: ١٣/٢٥٢). وتابعه على رأيه محققا كتاب: ((معاني القرآن)) للفراء: الأستاذان: أحمد نجاتي ومحمد علي النجار: (المقدمة: ١٢). وكذلك محققا كتاب (معاني القرآن) للأخفش: د. فارس: مقدمة المحقق: ٥٥).

معاني القرآن «لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء «ت:٢٠٧هـ»

وصل هذا الكتاب إلى القراء برواية محمد بن الجهم بن هارون السمري[١] (ت: ٢٧٧هـ) أحد تلاميذ الفراء النابهين، وهو الذي حدد لنا في صدر الكتاب زمن إملاء الفراء له فقال: «هذا كتاب فيه معاني القرآن، أملاه علينا أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء (يرحمه الله) عن حفظه من غير نسخة في مجالسه أول النهار من أيام الثلاثاوات والجمع في شهر رمضان وما بعده من سنة اثنتين، وفي شهور سنة ثلاث، وشهور من سنة أربع ومائتين[٢]»، وذلك يعني أن الفراء أملاه في أواخر حياته، واستغرق إملاؤه قرابة العشرين شهرا، وقد طبع الكتاب محققا بهذه الرواية في ثلاث مجلدات[٣].

وللكتاب رواية أخرى لم تصل إلينا، هي رواية سلمة بن عاصم، اعتمدها القدماء لإجازة الفراء بعد اطلاعه عليها[٤].

---

(١) بتشديد الميم. نسبة إلى (سمر) بلدة بين البصرة وواسط.

(٢) معاني القرآن: ١/١.

(٣) طبع الجزء الأول سنة ١٩٥٥بتحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار (دار الكتب) والجزء الثاني: بتحقيق: محمد علي النجار (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، والجزء الثالث: بتحقيق د. عبدالفتاح إسماعيل شلبي سنة ١٩٧٣م (الهيئة المصرية العامة للكتاب) بالقاهرة.

(٤) تاريخ بغداد: ١٤/ ١٤٩، معجم الأدباء: ٢٠/ ١٢.

سبب تأليفه:

والسبب في إملائه المعاني، كما يقول ثعلب، أن عمر بن بكير من أصحاب الفراء كان منقطعا إلى الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء: «أن الأمير: الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن فلا يحضرني فيه جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا أو تجعل لي من ذلك كتابا أرجع إليه فعلت. فقال الفراء لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن، وجعل لهم يوما، فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس في الصلاة فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها ثم نوفي الكتاب كله[١]».

وقد سماه راويه محمد بن الجهم «تفسير مشكل إعراب القرآن ومعانيه[٢]» وهي ألصق بموضوع الكتاب ومادته من عنوانه المشهور.

قيمته العلمية:

بقدر ما للفراء من مكانة علمية سامية أضفاها عليه علماء عصره لا سيما الكوفيين فقد استرعى كتابه هذا أنظار طلاب العربية، ونال إعجابهم، فما أن شرع الفراء في إملائه حتى اجتمع لإملائه خلق كثير لم يضبط عددهم كان من بينهم ثمانون قاضيا[٣]، ولذلك فلا نعجب إذا

(١) الفهرست: ٩٩.

(٢) معاني القرآن: ١/١.

(٣) تاريخ بغداد: ١٤/١٥٠، معجم الأدباء: ٢٠/١٢.

سمعنا ثعلبا يمتدحه بقوله: «لم يعمل أحد قبله مثله، ولا أحسب أن أحدا يزيد عليه[١]».

منـــهــجــه:

الكتاب في جملته، تمثيل عملي لروح التداخل في العلوم التي اتسم بها القرن الثاني، وامتدت لتشمل أوائل القرن الثالث، فاختلطت فيه المادة اللغوية بالنحوية والصرفية والبلاغية.. وهكذا، ولكن المادة النحوية قد برزت أكثر من غيرها، ذلك أن منهجه، حسب ما يبدو من قراءته، يعتمد على الآتي:

أ- انتخاب بعض آيات القرآن الكريم المشكل معناها، بحسب اللغة، ثم توضيحها بالطريقة التي يقتضيها نوع الإشكال، وفي الغالب يعرب الآية أو جزءا منها، وإن كان للعلماء فيها أقوال ذكرها[٢] وقد لا يرتضي بعض الآراء فيرد أو يعلق عليها[٣] ويورد القراءات في الآية ويعزوها حتى ولو كانت شاذة، وقد يوجهها وفق لغة العرب[٤]، ويعالج رسم الحروف[٥]، ويتحدث عن مظاهر الإعجاز[٦]، وأسباب

---

(١) تاريخ بغداد: ١٤/١٥٠، طبقات المؤلفين: ١٤٤.

(٢) معاني القرآن: ١/٩، ١٣، ١٧، ٢١، وغيرها.

(٣) معاني القرآن: ١/٨، ٢٩، ٣٢، وغيرها.

(٤) معاني القرآن: ١/٣، ١٦، ١٧، ١٨، ٢٦٥ وغيرها.

(٥) معاني القرآن: ١/١، ٢، ٣.

(٦) معاني القرآن: ١/١٠، ١٤، ٢٠، ٢٣.

النزول وبعض الأحكام الشرعية المستفادة من الآية[١] وقد يكتفي بالشرح العام للآية دون الخوض في التفصيل. ونضرب لذلك أمثلة:

- ففي مجال الرسم: بدأ كتابه بإجماع القراء والكتاب على حذف ألف (اسم) من البسملة مع بقائها في غيرها، معللا ذلك بالتخفيف؛ لأن من شأن العرب الإيجاز بالحذف فيما يعرف معناه، ووضح أن الحذف مشروط بوجود الباء داخلة على كلمة (اسم) مضافا إليها لفظ الجلالة[٢].

- وفي مجال القراءة وتوجيه ما سمعه من العرب في قوله تعالى: ((الحمدالله)) فحكى اجتماع القراء على رفع (الحمد)، وما سمعه من العرب من فتح الدال وكسرها ورفع الدال مع اللام هكذا: (الحمدَ لله، الحمدِ لِله، الحمدُ لُله) فوجه النصب بأنه مصدر ناب عن فعله، واستشهد له من القرآن بقوله تعالى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ﴾[٣]، ووجه الخفض بالذوق اللغوي وأن العرب تستثقل الضمة بعدها كسرة، ولكثرة دورانها على ألسنتهم أصبحت كالكلمة الواحدة فأشبهت (إبل)، ووجه ضم الدال واللام بأنهم أرادوا المثال الأكثر من أسماء العرب الذي تتوالى فيه الضمتان كالحُلُم والعُقُب[٤].

---

(١) معاني القرآن: ١/٤٥٤، ٤٥٥.

(٢) معاني القرآن: ١/٢.

(٣) سورة يوسف: ٧٩.

(٤) معاني القرآن: ١/٣-٤، وللمزيد: ١/١٧، ١٨، ٢١.

- وفي مجال الإعراب: لم تمر آية، في الغالب، إلا تعرض لها بالإعراب حتى إن الكتاب ليشتبه إلى حد كبير مع كتب «إعراب القرآن»، ويبدو أن العلماء أخذوا آراءه النحوية من هذا الكتاب إذ لم يصلنا غيره.. وقد أطنب الفراء في حديثه عن (الاستثناء) المتصل والمنقطع وأحكامه عند تعرضه لقراءة الجمهور في قول الله عز وجل﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾[(١)]. والقراءة الثانية بالرفع (إلا قليل منهم) وهي قراءة ابن مسعود وأبي والأعمش[(٢)] ونافشها نقاشا نحويا قائما على تحليل الشواهد، وضرب الأمثلة موضحا مواطن الرفع والنصب والإتباع[(٣)].

- وفي مجال الظواهر اللغوية: نجده يتحدث عن التذكير والتأنيث والإفراد والجمع عند القبائل الفصيحة فيقول: «والفلك تؤنث وتذكر، وتكون واحدة وتكون جمعا... والعرب تقول: عاصف وعاصفة، وقد أعصفت الريح وعصفت، وبالألف لغة لبني أسد[(٤)]»، ووقف على ظاهرة «الإبدال» في قوله تعالى: (وفومها وعدسها وبصلها) ونص على سماعه من بني أسد إبدالهم الفاء من الثاء كثيرا[(٥)]، وتوقع أن (الرجس) مبدل من

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٤٩.

(٢) البحر المحيط: ٢/٢٦٦.

(٣) معاني القرآن: ١/١٦٦-١٦٨.

(٤) معاني القرآن: ١/٤٦٠.

(٥) معاني القرآن: ١/٤١.

(الرجز) أو أنهما لغتان، واستشهد لذلك بالسماع في الأُسْد والأَزْد[١].

ولا يلتزم تفسير كل كلمة بل الغامضة –في نظره– كالمن أو السلوى ونحوهما[٢]. وربما شرح شرحا عاما واكتفى به، يقول شارحا قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾[٣] «إذا أدركتك الصلاة وأنت عند مسجد فصل فيه، ولا تقولن: آتي مسجد قومي، فإن كان في غير وقت الصلاة صليت حيث شئت»[٤].

وثمة ملاحظة جديرة بالاهتمام على هذا الجانب من منهجه وهي أنه تناول الآيات وفق ترتيبها في المصحف، ولكنه لم يلتزمه أحيانا، ونبه المحققان على ذلك دون أن يعيداه لمكانه الطبيعي[٥].

وفي مجال البلاغة: فسر كثيرا من الآيات موضحا السر البلاغي فيها، ومشيرا إلى مظهر الإعجاز، فذكر الحذف والإيجاز، والاستفهام، والالتفات، والنفي للتعجب والكناية والمجاز ونحو ذلك[٦].

ب– اعتماده على الرواية عن الأعراب والنقل عن العلماء:

فقد احتج لقراءة الحسن (ولا أدرأتكم به) بالهمز، بقول امرأة من طيء

---

(١) معاني القرآن: ١/٤٨٠، وانظر أمثلة أخرى ١/٥، ٤٥، ٤٥٩.

(٢) معاني القرآن: ١/٢٠، ٣٧.

(٣) سورة الأعراف: آية ٢٩.

(٤) معاني القرآن: ١/٣٧٦، وللمزيد انظر: ١/١٩٠، ١٩١، ٢٢٢، ٣٧٨ وغيرها.

(٥) للمثال انظر معاني القرآن: ١/٣١، ٣٢، ٣٥.

(٦) معاني القرآن: ١/١٠، ١٤، ٢٠، ٢٣، ٤٢٣.

سمعها تقول: «رثأت زوجي بأبيات[١]» وكان لا يأخذ إلا عن قبائل فصيحة.

ونقل كثيرا عن المفسرين والقراء؛ كابن عباس ومجاهد وغيرهما[٢]، ونقل عن أساتذته اللغويين، وجلهم من الكوفيين منهم: الكسائي، وقيس بن الربيع وغيرهما، وقد يكتفي بالعزو[٣] إليهم وربما خالفهم فيناقشهم ويرد عليهم.. كقوله: «زعم الكسائي أن العرب نصبت الياء عند كل ألف مهموز سوى الألف واللام مثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾[٤]، و﴿إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ﴾[٥] ولم أر ذلك عند العرب»[٦]. وشواهده متنوعة وكثيرة، فكثيرا ما يستشهد على الآية بآية أخرى، وقل أن تخلو صفحة من ذلك[٧]، وقد يحتج بالحديث[٨]، أو بلغات العرب[٩] ويستشهد بالشعر الجاهلي والإسلامي كثيرا،

---

(١) نفس المصدر: ١/٤٥٩، ٤١.

(٢) نفس المصدر: ١/٢٤٩.

(٣) نفس المصدر: ١/٩، ١٣.

(٤) سورة يونس: ٧٢.

(٥) سورة الأنفال: ٤٨.

(٦) نفس المصدر: ١/٢٩، وانظر: ١/٢١، ٤٦، ٢٤٤، ٣٧٤.

(٧) نفسه: ١/٥، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٠.

(٨) نفسه: ١/٤٦٨، ٤٧٠.

(٩) نفسه: ١/٥، ٤٥، ٤٦٠.

وقد ينسب البيت إلى قائله، وقد يغفله[١]، وربما اكتفى بالنص على قبيلته دون تعيينه للإشارة إلى اللغة التي يستشهد بها[٢]، ويستشهد بالقراءات وينسبها – غالبا– إلى أصحابها[٣] وقد يغفلهم، فقام المحققان بعزوها إلى أصحابها، وتعرض للأحكام الشرعية[٤] والكلام على أسباب نزول الآيات[٥].

ج – اعتماده على ذوقه وحسه البلاغي، لا على الرواية والنقل فحسب: فقد تجلى ذلك من خلال كتابه حينما نظر إلى بعض أساليب العرب فلم يقرها[٦]، ولم يرتض بعض الشواهد الشعرية المخالفة لقاعدة قرآنية وأطلق عبارته الخالدة: «والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر[٧]»، وتكون شخصيته أكثر بروزا عندما يفند بعض المذاهب فيكرر عبارته: «ولست أستحسنه، أو لست أشتهيه[٨]» فإن وافقت رأيه قال: «وهو أحبها إليّ... أو والأول أحب إليّ» ونحو ذلك[٩]، ثم في براعته الفذة

---

(١) نفسه: ١/٢٣، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٢، ٦٨.

(٢) نفسه: ١/٤٠، ٤٢، ٥٦، ٦٨، ١٨٢.

(٣) المصدر نفسه: ١/٣، ١١، ١٦،١٧، ١٨، ٤٣، ٧٥.

(٤) المصدر نفسه: ١/٣٧٦.

(٥) المصدر نفسه: ١/٦٢، ٦٣، ٦٩، ٤٥٤، ٤٥٥.

(٦) المصدر نفسه: ١/٤٥٩.

(٧) المصدرنفسه: ١/١٤.

(٨) المصدرنفسه: ١/٢٠، ٤٧٣.

(٩) المصدرنفسه: ١/٢٢، ٤٦١.

عند تعليله لما سمع عن العرب وتأييده له ... ولكنه يتعصب كثيرا للمذهب الكوفي، إذ هو رأس طبقته الثالثة، ويكرر عبارات اختصوا بها مخالفة للبصريين، فيعبر بالكناية والعماد والجاري والنعت وواو الصرف بدلا من: الضمير وضمير الفصل والمنون والتابع(١)... ولكن لا نعدم أن نرى له نقلا عن بعض البصريين كيونس بن حبيب(٢)، وكثيرا ما يصطنع الفراء أمثلة يشرح بها رأيه(٣).

---

(١) المصدرنفسه: ١/٢، ٣، ٦، ١٦، ٣٤، ٤٢، ٥١، ٣٧١.

(٢) المصدرنفسه: ١/١٢٧.

(٣) المصدرنفسه: ١/٢، ٢٩، ٨٨.

الخاتمة

عشت مع هذا البحث زمنا ليس بالقصير، ألم شتاته وأجمع أجزاءه، وأخط بناءه، حتى أقمت له -بفضل الله- صرحا مكتمل البناء، فصنفته في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول:

فالتمهيد عن (القرآن الكريم ولغته) إذ القرآن الكريم هو الأساس المتين ومركز التوجيه، والدفع لما جاء بعده من فصول فعرفت به، وبقراءاته وتأريخها بإيجاز.

كما بينت في المبحث الثاني من التمهيد أن هذه اللغة نزل بها القرآن بعد أن توحدت قبيل الإسلام، وصارت بنزول القرآن صافية خالية من كل شائبة فقد سما بها ورفعها مكانة بين العرب ومكانة في العالمين، ولا عجب فهو معجزة النبي ﷺ ، وحديثي عن اللغة كان شاملا لنشأتها وتطورها وتأثرها بالقرآن، مع تصحيح بعض المزاعم التي وجهت إليها من بعض المستشرقين ومن على شاكلتهم.

أما الفصل الأول (جمع اللغة) فكان حديثي منصبا على حرص العلماء عليها خدمة كتاب الله عز وجل مع بداية عصور الإسلام حين كانت تنتقل بالرواية ثم بالأخذ والتلقي والتدوين إلى أن تم جمعها في معجمات شاملة جامعة وشارحة للمعنى ضابطة للألفاظ.

وفي الفصل الثاني (ضبط اللغة) راقبت اللغة في مفرداتها المنطوقة وتراكيبها المعبرة، وما كان لظهور اللحن من دافع قوي حفز العلماء إلى

الوقوف في وجهه ومحاربته بشتى الوسائل لئلا يمتد إلى كتاب الله، فوضعوا لذلك ضابطين قويين حفظا اللغة واستصحباها -وسيظلان كذلك- إلى ما شاء الله تعالى:

أولهما: ضابط رمزي معبر يتمثل في النقط والشكل والإعجام، والآخر: ضابط منطوق معبر يتمثل في النحو والصرف والأصوات، وقد أتيت في وصفهما على ما كان لهما في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، فشرحتهما نشأة وتطورا، وبينت المسيرة وربطتها بالتأثير القرآني في طريقها الطويل..

وفي الفصل الثالث (التفسير اللغوي لألفاظ القرآن) بينت العلاقة بين التفسير وعلوم اللغة، وما ظهر من مؤلفات قيمة في غريب القرآن ولغاته ومعانيه كانت -ولا تزال- روافد أساسية لدرسنا اللغوي تمده بمعين لا ينضب، وعرضت بالدراسة لبعض هذه المؤلفات التي جاءت بالكثير من القضايا اللغوية.

ومما تقدم يتضح لنا الجهود اللغوية وتأثير القرآن الكريم فيها طيلة القرون الثلاثة الأولى للإسلام، حيث دفعها إلى ذروة العلا، وجعلها واصفة للحياة العربية في شتى مظاهرها الدينية الاجتماعية الثقافية فكانت لسان صدق للتأليف والتصنيف، محفوظة بالقرآن الكريم ناهضة وثابة تقود الناطقين بها إلى ما يقصدون إليه من سعادة وتقدم في ظل الدين الحنيف.

ولعل من أبرز النتائج التي خلص إليها البحث ما يلي:

١) تنوع الجهود اللغوية في هذه الحقبة المبكرة من تاريخ الإسلام وشمولها جوانب الدرس اللغوي -الصوتية والصرفية والتركيبة والدلالية- كما أنها لم تتوقف عند حدود القرون الثلاثة الأولى بل تنامت وتابعت

مسيرها في التطور إلى أزمان متأخرة.

٢) حفز القرآن الكريم همم العلماء نحو إبراز هذه الجهود اللغوية المختلفة صونا لألفاظه الشريفة من الوقوع في اللحن أو الخطأ في التفسير، ومراعاة لضبط رسمه وطريقة أدائه، ومحاولة لفهم دلالاته واستنباط معانيه. ولهذا يعد القرآن الكريم وقراءاته المحور الرئيس للدراسات العربية، ولولاه لاندثرت الفصحى وأصبحت لغة أثرية تشبه اللاتينية أو السنسكرتية؛ كما يقول أحد الباحثين المعاصرين(١).

٣) أن هذه الجهود المباركة بحاجة إلى مزيد من البحث لتجليتها وتتبع مراحلها في القرون اللاحقة، ولقد قامت دراسات علمية تناولت الجانب التركيبي منه وبيان تأثير القرآن وقراءاته فيه، ولعل ثمة بحوث ودراسات تتناول الجوانب الأخرى.

وبعد فهذا عرض موجز لأبرز ما اشتمل عليه هذا البحث وأهم نتائجه، وقد بذلت فيه جهدي فلم أبخل عليه بوقت أو فكر فإن كنت قد أصبت فذلك ما أردت وإن تكن الأخرى فذلك مني ومن الشيطان وحسبي أني قد اجتهدت، وأرجو منَ القارئ الكريم أن يصلح خلله وأن يرفو رتقه وأن يكمل نقصه، فهو -قبل هذا وبعده- عمل بشري لا يخلو من قصور.

(وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..).

---

(١) فصول في فقه العربية: ١١٥.

الفهارس

- فهرس الآيات القرآنية
- فهرس الأحاديث والآثار
- فهرس الأشعار والأرجاز
- فهرس المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات

فهرس الآيات

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ ﴾	المائدة: ٣٨	١٨٣، ١٨٥
﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾	الأعراف: ٢٩	٢١٢
﴿رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴾	الأعراف: ٨٩	١٧٠
﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡ ﴾	الأعراف: ١٣٨	١١١
﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾	الأعراف: ٢٠٤	١٦
﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾	الأنفال: ٤٨	٢١٣
﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ﴾	التوبة: ٣	٤٠، ١١٨، ١٤٢
﴿ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ ﴾	التوبة: ٢٤	١٥٠
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾	يونس: ٢٢	١٨٣ ١٨٤
﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾	يونس: ٧٢	٢١٣
﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ﴾	هود: ٧١	١٧٠

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾	يوسف: ٤	١٨٤
﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾	يوسف: ٣٠	٢٠٣
﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ﴾	يوسف: ٧٩	٢١٠
﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾	يوسف: ٨٢	١٨٣
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	إبراهيم: ٤	٤٢، ١٥٧
﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾	الحجر: ٩	٧، ١٧
﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾	الحجر: ٢٢	١٩٦
﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾	النحل: ٤٤	١٥٩
﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾	الإسراء: ٩	١٦
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾	الكهف: ١	١٦
﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾	الكهف: ٦	٢٠٤
﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾	مريم: ٨٤	١١١
﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾	طه: ٧١	١٨٥
﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾	طه: ١٠٨	١١٠

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾	المؤمنون: ٥	١٨٣، ١٨٤
﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾	الشعراء: ٤	١٨٥
﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾	الشعراء: ١٩٥	١٧١
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾	الشعراء: ٢٢٧	١٧٢
﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾	فاطر: ٢٨	٤٠
﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾	الصافات: ٦٥	١٧٧
﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾	ص: ٦	١٨٢
﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾	ص: ٢٣	١١٠
﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾	غافر: ١٥	١٩٦
﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾	فصلت: ١١	١٨٤
﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾	الزخرف: ٣	١٧١
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾	محمد: ٣٠	٥٢
﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾	الرحمن: ٢٢	١٨٥
﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾	الرحمن: ٧٦	٢٥
﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾	التحريم: ٤	١٨٣

الآية	السورة ورقم الآية	الصفحة
﴿ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾	الحاقة: ٣٧	١٤٣
﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾	المعارج: ٣٧	١٧٣
﴿ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ ﴾	المعارج: ٤٤	١١٠
﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾	المزمل: ٤	١٣٠
﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾	المزمل: ١٨	١٨٥
﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾	القيامة: ١٧	١٤
﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾	القيامة: ١٨	١٤
﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾	المطففين: ٢	١٨٥
﴿ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾	الماعون: ٢	١١٠
﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾	المسد: ١	١٨٤

فهرس الأحاديث

فهرس الأشعار والأرجاز

صدر البيت	قافيته	قائله	رقم الصفحة
ويوم فتحت	للضياع	يزيد بن مفرغ	٥
ولا ضعته	معن	النمر بن تولب	٨٨
هن الحرائر	السور	الراعي أو الكلابي	١٩٠
منطق بارع	لحنا	مالك الفزاري	٥٢
فجاءوا يهرعون	عزينا	عبيد بن الأبرص	١٧٣
فإن تك	مالكا	خفاف بن ندبة	١٨١
ضَحّوا بأشمطَ	قرآنا	حسان بن ثابت	١٤
رأت رجلا	فيخسر	عمرو بن أبي ربيعة	٦٢
ذهب النحو	عمر	الخليل	١٥١
ذراعي عيطل	جنينا	عمرو بن كلثوم	١٨٩
خيل صيام	اللجما	النابغة	٤٥
إن الرجال	تخضبي	عنترة	١٧٣
أمن آل نعم	فمهجر	عمر بن أبي ربيعة	٦١
أقول له والرمح	ذلك	خفاف بن ندبة	١٨١

فهرس المصادر والمراجع

١) القرآن.

٢) الإبانة عن معاني القراءات، أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت: ٤٣٧هـ)، تحقيق: محي الدين رمضان، ودار المأمون للتراث/دمشق الطبعة الأولى عام ١٣٩٩هـ.

٣) الإبدال، أبو طيب عبد الواحد علي اللغوي (ت: ٣٥١هـ) تحقيق عز الدين التنوخي، طبع المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٦٠/١٣٧٩.

٤) الإتقان في علوم القرآن، للإمام جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١) دار الفكر بيروت.

٥) أثر القراءات القرآنية في تطور الدرس النحوي، د. عفيف دمشقية، معهد الإنماء العربي، الطبعة الأولى –بيروت ١٩٧٨م.

٦) الجيم لأبي عمرو الشيباني، طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٧) أخبار النحويين البصريين، أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي، (ت: ٣٦٨هـ) تحقيق طه محمد الزيني وعبد المنعم خفاجي، القاهرة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي ١٣٧٤هـ.

٨) أدب الكاتب، أبو محمد عبد الله بم مسلم بن قتيبة الدينوري (ت:٢٧٦هـ) تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، مطبعة السعادة بمصر ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

٩) إرشاد الفحول، إلى تحقيق الحق من علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني،

ط الأولى ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، مطبعة البابي الحلبي القاهرة- مصر.

١٠) أساس البلاغة لجار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) دار ومطابع الشعب - القاهرة ١٩٦٠م.

١١) الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ) تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٨/١٩٥٨.

١٢) الإصابة في تمييز الصحابة، لشهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني «المعروف بابن حجر» (ت:٨٥٢هـ) تحقيق: د. طه محمد الزيني الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة.

١٣) الأصنام، أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي، طبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٣/١٩٢٤.

١٤) الأصوات اللغوية، دكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية الطبعة الخامسة ١٩٧٩.

١٥) الأضداد (في ثلاثة كتب)، للأصمعي (ت: ٢١٣) وللسجستاني (ت: ٢٥٥) ولابن السكيت (٢٤٤)، نشرها: د. أوغست هفنر،المطبعة الكاثوليكية للأنباء اليسوعيين- بيروت: ١٩١٢م.

١٦) الأضداد في كلام العرب، أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (ت: ٣٥١هـ) تحقيق: د. عزه حسن، طبع المجمع العلمي بدمشق ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م.

١٧) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب

العربي/ بيروت/ لبنان، الطبعة التاسعة ١٩٧٣/١٣٩٣.

١٨) الأعلام، خير الدين الزركلي، المطبعة العربية/ القاهرة ١٣٤٧/١٣٤٥هـ، وط بيروت الطبعة الثالثة.

١٩) الأغاني، تأليف ابن الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦) الطبعة الأولى ١٣٤٥هـ/١٩٢٧م، مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

٢٠) الاقتراح في علم أصول النحو، للحافظ جلال الدين السيوطي (ت: ٩١١) تحقيق: د. أحمد محمد قاسم، ط الأولى ١٩٧٦/١٣٩٦، مطبعة السعادة.

٢١) الأمالي، لأبي علي القالي- دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٦.

٢٢) إنباه الرواة على أنباه النحاة، تأليف/ جمال الدينر أبي الحسن علي بن يوسف القفطي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية- القاهرة ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م.

٢٣) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل، تأليف/ أبو بكر محمد ابن القاسم بن بشار الأنباري (٣٢٨هـ) تحقيق: محي الدين عبد الرحمن رمضان، طبع مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ/١٩٧١م.

٢٤) البحث اللغوي عند العرب، تأليف/ د. أحمد مختار عمر، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، عالم الكتب- القاهرة.

٢٥) بحوث في تاريخ السنة المشرفة، د.أكرم ضياء العمري، الطبعة الثالثة، مؤسسة الرسالة/بيروت ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٢٦) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي

(ت: ٧٩٤هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية ١٣٩١هـ/ ١٩٧٢م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٧) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت: ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه – القاهرة١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

٢٨) البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت: ٢٢٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر.

٢٩) تاج الدين وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري (ت: ٤٠٠ تقريبا) تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين نسخة مصورة عن الطبعة الثانية ١٣٩٩/١٩٧٦ بيروت – لبنان.

٣٠) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد مرتضى الزبيدي، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الخيرية– بالقاهرة ١٣٠٦هـ.

٣١) تاريخ الأدبي العربي، أو حياة اللغة، تأليف: حفني ناصف، الطبعة الثانية –القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨م.

٣٢) تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، القاهرة ١٩١١م.

٣٣) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان، الطبعة الرابعة، دار المعارف القاهرة.

٣٤) تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، تأليف: د. ريجينس بلاشير – تعريب: د. إبراهيم كيلاني، دار الفكر/ دمشق ١٩٥٦م.

٣٥) تاريخ الأدب العربي (السلسلة) د. شوقي ضيف، الطبعة السابعة/ ١٩٧٦ – دار المعارف بمصر/القاهرة.

٣٦) تاريخ بغداد، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت/لبنان (د.ت،ط).

٣٧) تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية القاهرة ١٩٥٤م.

٣٨) التعريف بالقرآن والحديث، تأليف: محمد الزفزاف، الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ، دارالكتب العلمية– لبنان/ بيروت.

٣٩) تفسير البحر المحيط، لأبي عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الأندلسي (٧٥٤هـ) مطبعة السعادة بمصر– الطبعة الأولى ١٣٢٨هـ.

٤٠) تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، دار الكتب العلمية –بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٤١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير: د. البنا وآخرون، ط دار الشعب بالقاهرة.

٤٢) التفسير والمفسرون، د. محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة القاهرة، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٤٣) التفقيه في اللغة، لأبي بشر اليمان بن اليمان البندنيجي (ت: ٢٨٤هـ)

تحقيق: الدكتور خليل العطية، مطبعة العاني ب بغداد ١٩٧٦م.

٤٤) تنوير المقباس في تفسير ابن عباس، أبي طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) الطبعة الثانية ١٩٥١/١٣٧٠، مطبعة البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة.

٤٥) تهذيب الأسماء واللغات، لأبي زكريا محيى الدين بن شرف النووي (٦٧٦هـ) دار الكتب العلمية -بيروت.

٤٦) تهذيب الألفاظ = كتر الحفاظ.

٤٧) تهذيب اللغة، لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت: ٣٧٠هـ): تحقيق عبد السلام هارون، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ١٣٨٤/ ١٩٦٤ القاهرة.

٤٨) جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ) الطبعة الثالثة ١٩٦٨/١٣٨٨، مطبعة البابي الحلبي بمصر- القاهرة.

٤٩) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: ٦٧١هـ) الطبعة الثالثة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٥٠) الجامع لشعب الإيمان، لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ) تصحيح وعناية: عزيز بيك القادري، الطبعة الأولى مطبعة العزيزية/حيدر آباد/الهند ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

٥١) جمهرة اللغة، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١هـ)

الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف، حيدرآباد/الدكني/الهند.

٥٢) حجة القراءات، لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجله، تحقيق: سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، الطبعة الثانية.

٥٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب على شواهد شرح القافية، الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي (ت: ١٠٩٣هـ) نسخة مصورة عن الطبعة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق.

٥٤) الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ) تحقيق: محمد على النجار، دار الهدى للطباعة والنشر- الطبعة الثانية. (د.ت).

٥٥) دراسات في العربية وتاريخها، محمد الخضر حسين، المكتب الإسلامي - دمشق، الطبعة الثانية ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

٥٦) دراسات في القاموس المحيط، د.محمد مصطفى رضوان، الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، مطبعة الشروق -بيروت/لبنان.

٥٧) الدراسات اللغوية عند العرب، تأليف/محمد حسين آل ياسين، منشورات دار مكتبة الحياة -بيروت، الطبعة الأولى.

٥٨) ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق الفاراتي (ت: ٣٥٠هـ)، تحقيق: د. أحمد مختار عمر، طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

٥٩) ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: د. وليد عرفات، المكتبة العلمية، لاهور.

٦٠) ديوان عمرو بن كلثوم، تحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١١هـ.

٦١) رسم المصحف والاحتماع به في القراءات، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مكتبة نهضة مصر- الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ.

٦٢) رواية اللغة، د. عبد الحميد الشلقاني، مطبعة دار المعارف بمصر ١٩٧١م.

٦٣) الزينة في الكلمات الإسلامية والعربية، تأليف الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت: ٣٢٢هـ) تعليق: حسين بن فيض الله الهمداني الطبعة الثانية ١٩٥٧، دار الكتاب العربي/القاهرة.

٦٤) سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ) تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مكتبة البابي الحلبي- القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ.

٦٥) سيبويه إمام النحاة، تأليف/ على النجدى ناصف، الناشر/عالم الكتب القاهرة- الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

٦٦) شرح أبيات سيبويه، يوسف بن أبي سعيد بن المرزبان السير افي (ت: ٣٨٥هـ) تحقيق: د.محمد على الريح هاشم، مكتبة الكليات الأزهرية، دار الفكر بالقاهرة ١٣٩٥/١٩٧٥.

٦٧) شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية ١٣٨٠/١٩٦٠، مطبعة السعادة/القاهرة.

٦٨) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تأليف: أبي أحمد الحسن ابن عبد الله العسكري (ت: ٣٨٢هـ) تحقيق: عبد العزيز أحمد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الأولى ١٣٨٣/١٩٦٣.

٦٩) الشرع والشعراء، لابن قتيبة (ت: ٢٧٦هـ) تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الثالثة ١٩٧٧. (د.ن).

٧٠) الصاحبي - لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ) الطبعة الأولى، طبع المطبعة السلفية، القاهرة ١٩١٠م.

٧١) الصاحبي، لأبي الحسين أحمد بن الفارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/القاهرة.

٧٢) صحيح الإمام مسلم بن الحجاج بشرح أبي زكريا بن يحيى ين شرف النووي (ت: ٦٧٦هـ) (بدون تحقيق) المطبعة المصرية ومكتبتها.

٧٣) ضحى الإسلام، تأليف: أحمد أمين، الطبعة التاسعة ١٩٧٩م، مكتبة النهضة المصرية/ القاهرة.

٧٤) طبقات فحول الشعراء، تأليف: محمد بن سلام الجمحي (٢٣١هـ) بشرح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني _ القاهرة ١٣٩٤/١٩٧٤.

٧٥) العربية، (دراسات في اللغة واللهجات والأساليب) تأليف: يوهان فك، ترجمة: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي — القاهرة.

٧٦) العقد الفريد، تأليف: أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرح وترتيب: أحمد أمين وآخرون، الطبعة الثامنة ١٣٧٥/١٩٥٦، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

٧٧) علم اللغة، تأليف: د. على عبد الواحد وافى، دار نهضة مصر/ القاهرة، الطبعة السابعة. (د.ت).

٧٨) العمدة في محاسن الشعر ونقده، تأليف: الحسن بن رشيق القيرواني (ت: ٤٦٣هـ) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، دار الجيل- بيروت/لبنان.

٧٩) العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت: ١٧٥هـ) تحقيق: الدكتور/ عبدالله درويش –مطبعة العاني-بغداد- العراق ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م، الطبعة الأولى.

٨٠) كتاب الغريبين، لأبي عبيد أحمد بن محمد الهروي (ت: ٤٠١هـ) تحقيق: محمود محمد الطناحي، طبع: لجنة التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية –القاهرة ١٩٣٠هـ/ ١٩٧٠م.

٨١) فتح الباري – بشرح صحيح البخاري، للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) تحقيق: الشيخ عبد العزيز بن باز، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة ١٣٨٠هـ.

٨٢) فجر الإسلام، أحمد أمين، الطبعة الثانية عشرة ١٩٧٨، مكتبة نهضة مصر/ القاهرة.

٨٣) الفصحى لغة القرآن الكريم، سليمان البستاني مترجم الإلياذة إلى العربية.

٨٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الظاهر، مطبعة محمد على صبيح/ القاهرة.

٨٥) فصول في فقه العربية، الدكتور/ رمضان عبدالتواب، مكتبة الخانجي، الطبعة الخامسة، ١٤١٨هـ- القاهرة.

٨٦) فقه اللغة، الدكتور/علي عبد الوافي، دار نهضة مصر، القاهرة، طبعة سابعة.

٨٧) فقه اللغة وخصائص العربية، الأستاذ محمد المبارك، الطبعة الخامسة ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، دار الفكر – بيروت.

٨٨) الفهرست، لمحمد بن إسحاق المعروف بابن النديم (ت: ٣٨٥هـ) الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر – بيروت/لبنان.

٨٩) فهرست ما رواه عن شخيه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعارف، لأبي بكر محمد بن خير بن عمر الأموي الإشبيلي (ت: ٥٧٥هـ) الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ/١٩٦٣م، منشورات المكتب التجاري ببيروت، ومكتبة المثنى ببغداد، ومؤسسة الخانجي بالقاهرة.

٩٠) في الأدب الجاهلي، د. طه حسين، الطبعة الثالثة، لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٣٥٢هـ.

٩١) في اللهجات العربية، دكتور/ إبرهيم أنيس، الطبعة الثالثة، مكتبة الانجلو المصرية.

٩٢) القاموس المحيط، تأليف: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت: ٨١٧هـ) تقديم وتعليق: أبوالوفا نصر الهوريني، الطبعة الثانية ١٣٧١هـ/١٩٥٢ م، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- القاهرة.

٩٣) القرآن (نزوله وتدوينه، وترجمته وتأثيره) ألفه: بلاشير، ترجمة: رضا سعاد، دار الكتاب اللبناني- بيروت/لبنا، الطبعة الأولى١٩٧٤م.

٩٤) قصة النقط والشكل في المصحف الشريف، د. عبد الحي الفرماوي دار النهصة العربية وبمطبعة حسان/القاهرة ١٣٩٨هـ.

٩٥) الكتاب أو «كتاب سيبويه» لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت: ١٨٠هـ) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م والطبعة الثانية.

٩٦) كشف الطنون عن أسامي الكتب والظنون، مصطفىبن عبد الله الشهير بحاجي خليفة، منشورات مكتبة المثنى- بغداد.

٩٧) كتر الحفاظ في كتب تهذيب الألفاظ، لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق السكيت (٢٤٤هـ) هذبه: الشيخ أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي وضبطه:الأب لويس شيخو اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية-بيروت ١٨٩٥.

٩٨) لسان العرب، لابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (ت: ٧١١هـ) طبعة مصورة من طبعة بولاق، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر.

٩٩) اللغات في القرآن، لابن عباس (ت: ٦٨هـ)، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، الطبعة الثانية، الناشر: دار الكتاب الجديد، بيروت ١٣٩٢هـ.

١٠٠) لغة القرآن الكريم، د/عبدالجليل عبدالرحيم، مكتبة الرسالة الحديثة- عمان ١٩٨١م.

١٠١) لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير، تأليف: محمد الصباغ المكتب الإسلامي -بيروت ١٣٩٤/١٩٧٤.

١٠٢) لهجة تميم وأثرها في العربية، غالب فاضل المطلبي، دار الحرية للطباعة/ بغداد ١٩٧٨م.

١٠٣) المعجم العربي في الماضي والحاضر، عدنان الخطيب، طبع القاهرة.

١٠٤) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين بيروت- الطبعة العاشرة/١٩٧٧م.

١٠٥) مباحث في علوم القرآن، تأليف:مناع القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت- الطبعة الخامسة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

١٠٦) مجمع الأمثال، أحمد بن محمد أحمد الميداني (ت:٥١٨هـ) تحقيق: محمد محيى ا لدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م.

١٠٧) مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاما من ١٩٣٢-١٩٦٢ (مجموعة القرارات العلمية من د١- د٢٨) إخراج وتعليق: محمد خلف الله أحمد محمد شوقي أمين، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧١م.

١٠٨) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات، أبو الفتح عثمان بن جني (ت: ٣٩٢هـ) تحقيق: علي النجدي ناصف آخران، طبع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٠٩) المحكم في نقط المصاحف، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت: ٤٤٤هـ) تحقيق: د/عزة حسن، طبع وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسوريا/ دمشق١٣٧٩هـ/١٩٦٠م.

١١٠) المخصص، لأبي الحسن علي بن إسماعيل- الأندلس المعروف «بابن

سيده»، (ت:٤٥٨) المكتب التجاري للطباعة والنشر.

١١١) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د.محمد محمد أبو شهبة، الطبعة الثانية/ ١٩٧٣، القاهرة الحديثة للطباعة.

١١٢) مراتب النحويين: عبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي (ت: ٣٥١هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية ١٣٩٤/١٩٧٤، دار نهضة مصر/القاهرة.

١١٣) المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي شامة: شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي، تحقيق: طيار آلتي قولاج، دار صادر، ١٣٩٥، بيروت.

١١٤) المزهر في علوم اللغة وأنواعها: تأليف عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، ومحمد أبو بكر الفضل إبراهيم وعلي محمد البيجاوي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة.

١١٥) كتاب المصاحف: للحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان الأشعث السجستاني (ت: ٣١٦هـ) تصحيح: د. آثر جفري، الطبعة الأولى- ١٩٣٦م/١٣٥٥هـ، ارلمطبعة الرحمانية بمصر.

١١٦) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد علي الفيومي (ت: ٧٧٠هـ) تحقيق: د.عبد العظيم علي الشناوي، دار المعارف بمصر ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

١١٧) المعاجم العربية: تأليف: د. عبد الله عبد الفتاح درويش، مكتبة

الشباب/القاهرة.

١١٨) المعاجم العربية (دراسة تحليلية): تأليف: د. عبد السميع محمد أحمد،١٣٩٣هـ/١٩٧٤، مطبعة دار الفكر العربي.

١١٩) معاني القرآن: تأليف أبي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت: ٢٠٧) المطبعة الثانية، ١٩٨٠ عالم الكتب/بيروت.

١٢٠) معاني القرآن: لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، المعروف (بالأخفش الأوسط) (ت: ٢١١هـ)، تحقيق: د.فائز فارس، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ/ ١٩٨١، الكويت.

١٢١) معجم الأدباء: ياقوت الحموي (ت: ٦٢٦هـ)، مطبعة دار المأمون القاهرة.

١٢٢) معجم البلدان، لياقوت الحموي (مطبعة دار السعادة) القاهرة: ١٩٠٦.

١٢٣) المعجم العربي (نشأته وتطوره) د. حسين نصار، دار مصر للطباعة – القاهرة.

١٢٤) معجم غريب القرآن مستخرجا من صحيح البخاري، وصفه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الثانية.

١٢٥) معجم قبائل العرب: تأليف: عمر رضا كحالة، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ/ ١٩٨٧م، مؤسسة الرسالة/بيروت.

١٢٦) معجم متن اللغة: الشيخ أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت/ ١٣٧٧هـ-١٩٥٨م.

١٢٧) المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نشره: د.أ.ي. ونستك، مكتبة بريل في مدينة لندن، ١٩٣٦م.

١٢٨) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت/لبنان.

١٢٩) معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا (ت: ٣٩٥هـ) تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون، طبع دار الكتب العلمية، إيران.

١٣٠) معجم المؤلفين: تأليف: عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي بيروت/لبنان.

١٣١) المعجم الوسيط: أخرجه إبراهيم مصطفى وآخرون، مطبعة مصر- ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

١٣٢) معرفة القراء الكبار، لشمس الدين أبي عبد الله الذهبي (٧٤٨هـ) تحقيق: محمد سيد جاد الحق، طبعة أولى، دار الكتب الحديثة القاهرة.

١٣٣) مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تأليف: أحمد بن مصطفى - الشهير بطاش كبري زاده، تحقيق: كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة/القاهرة ١٩٦٨م.

١٣٤) المقتضب لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥هـ) تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمه. طبعة مصورة عن دار الكتب، عالم الكتب بيروت.

١٣٥) المقنع في رسم مصاحف الأوصار (مع كتاب النقط) تأليف: الإمام أبي

عمرو عثمان بن سعيد الداني (٤٤٤هـ) تحقيق: محمد الصادق قمحاوي– مكتبة الكليات الأزهرية/ القاهرة.

١٣٦) المفردات في غريب القرآن: تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) تحقيق:: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة/بيروت.

١٣٧) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د.جواد علي، دار العلم للملايين،بيروت، مكتبة النهضة، ببغداد، ط الأولى —بيروت– عام ١٩٧٢م.

١٣٨) مقدمتان في علوم القرآن، نشر: آثر جفري، تصحيح: عبد الله الصاوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٢م.

١٣٩) مقدمة الصحاح، تأليف: أحمد عبد الغفور عطار، طباعة ونشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

١٤٠) مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (٧٢٨) تحقيق: د. عدنان زرزور، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة (بيروت) ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

١٤١) مقدمة كتاب العير وديوان المبتدأ والخبر، للعلامة عبد الرحمن بن خلدون (٨٥٠هـ) الطبعة الرابعة، دار إحيار التراث العربي، بيروت لبنان.

١٤٢) من أسرار اللغة، تأليف: إبراهيم أنيس، الطبعة السادسة، الناشر/ مكتبة الانجلو – القاهرة ١٩٧٨م.

١٤٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني، طبعة

عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٤٤) من الدراسات القرآنية، د. عبد العالي سليم مكرم، المطبعة العصرية- الكويت، مؤسسة علي جراح الصباح ١٩٧٨م.

١٤٥) المهذب في القراءات العشر وتوجيهها عن طريق طيبة النشر، تأليف دكتور محمد سالم محيسن، الناشر/مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ١٣٨٩هـ، ط الثانية.

١٤٦) الموافقات في أصول الأحكام، لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي (٧٩٠هـ) تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة المدني بالقاهرة (د.ت.ط).

١٤٧) النبأ العظيم، د.محمد عبد الله دراز، الطبعة الثالثة ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، دار القلم - بالكويت.

١٤٨) نحو وعي لغوي، تأليف الدكتور: مازن المبارك، طباعة مؤسسة الرسالة/ بيروت عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

١٤٩) نزهة الألبا في طبقات الأدباء، أبو البركات كمال الدين عبد الرحمن بن محمد الأنباري (ت:٣٢٨هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى: ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م. دار نهضة مصر/ القاهرة.

١٥٠) نشأة الخط العربي وتطوره، للأستاذ: محمود شكر الجبوري، منشورات مكتبة الشرق الجديد، بغداد.

١٥١) نشأة اللغة عند الإنسان والطفل، د. علي عبد الواحد وافي،

مكتبة غريب/ القاهرة.

١٥٢) نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، الشيخ: محمد الطنطاوي، دار المعارف بمصر، الطبعة السادسة عام ١٣٩٣/١٩٧٣م.

١٥٣) النشر في القراءات العشر، لمؤلفه: الحافظ أبي الخير محمد محمد الدمشقي (ت: ٨٣٣هـ) الشهير بابن الجزري، تصحيح: علي محمد الصباع مطبعة محمد مصطفى /القاهرة.

١٥٤) نظرات في اللغة، الدكتور: محمد مصطفى رضوان، منشورات، جامعة قاربونس، الطبعة الأولى عام:١٩٧٦م، بنغازي – ليبيا.

١٥٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، للإمام مجد أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري، المعروف بابن الأثير: ٦٠٦هـ، تحقيق: محمود محمد الطناحي وطاهر أحمد الزاوي، الناشر المكتبة الإسلامية- بيروت، الطبعة الأولى: ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

١٥٦) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت: ٣٦٦هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، الطبعة الرابعة، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه/القاهرة.

١٥٧) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ) تحقيق: د.إحسان عباس، طبع دار الثقافة، بيروت.

فهرس المحتويات